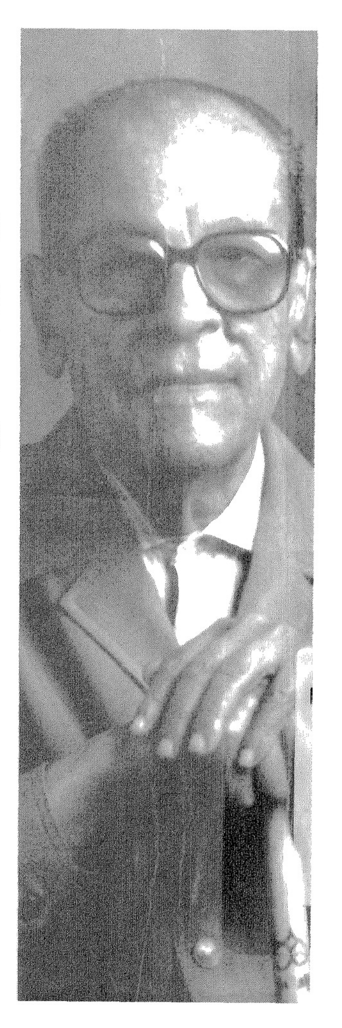


نجيب محفوظ

أحلام فترة النقاهة

إعداد وتقديم سناء البيسى

دار الشروق


أحلام فترة النقاهة

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

نجيب محفوظ

أحلام فترة النقاهة

دار الشروق

أحلام نجيب محفوظ

صاحب الفخامة الحائز على نوبل..

تحية طيبة . . وبعد . .

لا . . إن التحية التى أرفعها لمقامك فى ذكرى مولدك الثالث بعد التسعين أجد أن لفظة «طيبة» إلى جوارها لاترقى إليك ، فالأجدر أن يلصق بتحيتك الانحناء والتبجيل . . تحية حب وتفضيل . . تحية أعماق للعميق . . تحية قارئ لكاتبه الأمجد . . تحية مدعو لفيض كرم المضيف . . تحية من الوهاد للجبال ومن البرعم للساحة الغنَّاء ومن الكوخ لصاحب القصر المنيف . . تحية بلا حدود ولا نهايات ولا أبواب ولا محطة وصول . . تحية للأصل والفرع والثمر والمخترع والمجدد والمطوِّر والتراث . . تحية لحضارة الكلمات ومسلة البناء ونهر العطاء ولغة الغد . . تحية للسرد والموجز . . تحية للتفاصيل والقول الفصل . . تحية للقاهرة ٣٠ والحلم الثالث والأربعين بعد المائة . . تحية لمن عبر الحدود على متن قلمه وأتى بنوبل من أنياب الأسود . . تحية للدمث الوديع الصديق الأديب حلو اللسان والمعشر مشرق الابتسامة دُرَّة الكلام والمقام ابن مصر فخر مصر .

سيدى.. صاحب الكرم فى زمن الجدب..

شباب قلمك يذهلنا . . فحولتك الأدبية لا تجاريها فوارس الأقلام . . جملتك اللغوية تراكيبها نجيبة محفوظة بالعناية السامقة . . تأخيرك وتقديمك سلاسة لغة وسلاسل ذهب . . طاوعتك الرواية فأجلستك على عرشها راضية مرضية ، وها أنت ذا فى «حلمك» تشرخ فى الأرض البكر تقلِّبها تنقِّيها تذريها تخصِّبها تولِّدها تحصدها لتغدو آمرها وناهيها ومالكها المتحكم فى هكتاراتها وفدادينها وغاباتها وقراريطها وأسهمها وحواريها وأزقَّتها . .

سيدى..

هذا العالم الجديد الذى اخترعته . . من أين أتيت بأدواته ولحد علمنا ويقيننا أن ليس فى حوزتك سوى قلم حر وورقة ناصعة البياض؟! من أين لك عبقرية هذا الاختزال الدقيق الذى ينزع الحراشيف ليُبقى على الجوهر متلألئا ألقا؟! كيف تساميت تقشفا وورعا لتزهد فى الدسم الزائل لتصل إلى النخاع؟! . . ما سر قوتك الخفية فى بناء كل تلك الفصول والمدارس والمعاهد والجامعات الأدبية ، وغيرك إذا ما ألقى علينا محاضرة فى سنة أولى حضانة طالبنا بالتسبيح بريادته والانحناء لعظمته والانتساب لحوارييه؟! كيف استطعت عبور أسنَّة رماح التكرار وغابات أشواك الملل وصحارى التقعُّر وعفاريت المط والتطويل وبحار غربة التقليد والاقتباس ،

وصنعت لنفسك صرحاً لم يطرقه غيرك، ولغة أجروميتها ملك يمينك، ووصفا لم يصفه إلا أنت، وجملة حدودها خريطتك، وكلمة سياقها سريرتك، وحرفا فى سلسلة مفاتيحك، وعالما أنت ساكنه ومالكه ونجمه وقمره ومسرحه وحارسه تفتح لنا بابه بكرمك فيخيَّل إلينا لأول وهلة - من فرط سذاجتنا واعتيادنا على تعاطى المطروح كما خيِّل للبعض وكما كتب البعض وكما قال البعض - أن فى الأمر تدريب لأصابعك للكتابة بعد حادث الاعتداء الأثيم عليك فى عام ١٩٩٤، وأن المسألة هزار، وأن ما تقدمه لنا ليس سوى سرحة حدوتة ملتوتة صغنطوطة نمتَ وصحيت تحكيها حلما فى ليل الأمس مبتغيا من مفسر الأحلام هاضم بن سيرين أن يبدأ كلامه بقوله: «خير اللهم اجعله خيرا» . . الشاطئ الآخر فى المنام تفسيره هدف ووصول، والمرأة التى رأيتها يا والدى ذكرى عشق وغرام وصهللة، والقارب بمعنى حياة، والعيّل خير على قدوم الواردين، والسمكة شوك وشراك، والسكين رمز لبتر الوصال، والثعلب واحد خان العيش، والبحيرة ماض وأسرار وأعماق، والسلم فلوس فى الطريق، والشرفة إطلالة، وقدامك سكة سفر وطريق السلامة، وبيت العباسية طفولة مزمنة، والموظف غمز ولمز عن البطالة، والراقصة رغبة كامنة، والبيت الوطن، والشلة دلالة الشعور بالوحدة، والأبواب المغلقة خوف من المجهول، ووزير الداخلية فى الحلم انعكاس للالتزام، والمدير رهبة من سطوة السلطة، والقمر كان له ليال . .

ولقد مر البعض مرور الكرام بحلم وآخر فى سلسلة أحلام فترة

النقـاهة بمفهـوم أنه لابد أن تتسع الصـدور ، فتـاريخ الـمحـفـوظ يشـفـع له مهـادنـة ما يتـراءى له ، وشكروا الله عزّ وجلّ أن الرجـل مـن بعـد إصـابتـه ظل يكتب ، وهذا فى حـد ذاته عـلاج يخـرجـه من بئـر الاكـتـئـاب . . و . . ولكنهم بعدما نظّفوا أمخاخهم وجلوا طبقات الصدأ المتعارف عليه ورمّموا مفاصل الفهم ونزعوا زيف المستعار التقوا بنجيب محفوظ فى بعثه الشبابى الأدبى الجـديد . . الخلاصة فى دفقة عـبقـرية . . شامـخـا فى السـاحة . . مبتسما فى عفو عن مقدرة . . عـارفاً قدره . . استيقظ الجمع ليتابع جواهر محفوظ فى «نصف الدنيا» التى تشرّفت بمولد ورعاية ونشر الأحلام موثقة بخط نجيب محفوظ الحقيقى الذى تحتفظ وحدها بأصوله تذكرة للتاريخ بعد أن تفشى مرض الزهايمر التاريخى وأصبحنا بحق أقدم أمة وأضعف ذاكرة . .

سيدى سيد الأساتذة..

أظل على أحرٍّ من الجـمـر فى انتظار طلّتـه التى تتبـدى مع كـل حلـم جديـد يورق فى الصـحـراء القـفـر نبـاتـا وظلا ونارا ونورا . . الحلم الذى لاتتعدى سطوره كلمات . . كـلمـات . . لكنهـا ليست ككل الكـلمـات . . إنها كل الكلمات وجميع المستويات وتخليص الحاضر وتلخيص الإبريز وإسـقـاطات الـمـاضـى وسكة السـفـر للغـد وكـشـف مـا تـحـت الـجلد . . ومـعـذرة يا سـيدى أننى أنبش وأنكش وأتلمس نبـضـك من قـريب وبعـيـد لدرجـة أننى وضـعـت يدى على قلبى يومـاً خـشـيـة من الوصـول إلى رقـم

المائة فى أحلامك . . تمنيت توقف الزمن عند الرقم الثامن والتسعين وبعدها التاسع والتسعين، وعند بلوغ المائة توجست خيفة أن تعلن أمرا جللا . . التوقف . أن تزهد فينا . . أن تكتفى . . أن يسقط الحائط الرابع من كيان «نصف الدنيا» . . أن يغادر الفارس ساحتنا . . أن يُخمد أوار نيران غيرة الساحات الأدبية والصحفية منا لتفردنا بك، فوحدنا ننشر منذ الثامن عشر من فبراير عام ١٩٩٠ جميع إنتاجك . . لقد غدونا المصدر الوحيد لكل حرف جديد يكتبه نجيب محفوظ . . نشرت معنا أول قصة بعنوان «المهد» ومنذ ذلك التاريخ وأنت لا تنقطع عن الكتابة لنا، وعن أن تمدنا بجديدك، باستثناء بعض أشهر من عام ١٩٩٤ وهو العام الذى شهد محاولة اغتيالك الآثمة الفاشلة على يد غرير لم يقرأ لك حرفا . . يا سيدى طوال هذه المسيرة الجميلة الطويلة أنت معنا . . تكتب أشكالا عديدة من السرد . . القصة القصيرة، الطويلة التى اعتادها قراؤك منك، ثم القصة القصيرة جدا، ثم الشكل الفريد الذى لم يسبقك إليه روائى قاص أو دانٍ من قبل . . الأحلام . . الفتح الجديد فى السرد العربى . .

من بعد الحلم المائة عشتُ كآبة التخوف، لكن فرحتى الطاغية أتت إلى مكتبى تمشى على قدمين . . رأيته . . لاقيته كالبشارة . . رسولك الدائم لى . . حمامة الأيك فى صباحى . . هديتك الثمينة يحملها لى الرجل الدمث «الحاج صبرى» سكرتيرك وقارئ الصحف لك . . أتى يحمل لى الحلم الواحد بعد المائة . . الثانى بعد المائة . . الثالث بعد المائة . . و . .

الرابع بعد المائة . . . والثالث والأربعون بعد المائة بخط يدك . . وإننى على علم يا سيدى - واعذر جرأتى وتطفلى - بأن هناك لم يزل لى فى الدرج الأخير بمكتبك - الذى أسميته باسمى - عشرات أحلام أخرى بخط يدك . . سلمت يدك التى أتلقى أحلامها كهبة من المولى وفضلا منك لأظل مبهورة أحصى جواهرها كصائغة مدربة متخصصة واثق أنت من خبراتها وحضن احتوائها وصدق حبها فتوكل إليها مهمة القيام بالأمر الغالى مرتاح البال . . حلمك الغالى أتفحص صياغته . . أتروى بين نقاطه وفواصله . . أقارن بين حروفه وثنياته ومدّاته وواواته وجرّاته وتاءاته المربوطة والمفتوحة . . الصبر الجميل وشفافية الامتزاج بأدواتك وسمو الالتصاق بعباراتك فى انبثاق مولدها ومجراها ونهاياتها . . روية العشق فى التنزه بين النقاط والفواصل والمقارنة بين الحروف كى لا تنفرط ماسة أو لؤلؤة أو يشرد حجر كريم أو أن تكون دمعة ياقوت قد سقطت سهوا من قلم الكبير الكريم . . وأحسد نفسى لأنك تضعنى فى هذه المنزلة . . المكانة المتفردة التى يتمناها كل الملتصقين بنجيب محفوظ . . أن أكون أولى القارئات . . أن أكون أولى المفسرين . . وليأت من بعدى إلى حين النشر كل الآخرين . . ولابد من أن تكون الدفقة الأولى والطلعة الطازجة وسخونة الأوراق القادمة من عنده لعندى من بعد أن حمّلها نجيب بأحلامه لابد وأن يحمل تفسيرها لديّ الكثير من الحقيقة . . بحكم شدة الاقتراب . . بحكم العامل الزمنى الطويل . . بحكم فهمى وإخلاصى له ووثوقه الكريم بى .

في حلمه رقم «١٠١» الذى يعد خير فاتحة لمئات الأحلام الأخرى بمشيئة الله يقول فيه :

«زينّا البيت ترحيبا بالابن العائد بعد غياب أصبح فيه نجما من نجوم المجتمع وأمضينا السهرة فى الشرفة التى تمد الشقة بالمنظر الجميل والهواء النقى وأتحفنا العائد بالأشعار والألحان حتى انتصف الليل ، وفى الصباح وجدنا مدخل الشقة مسدودا بدولاب عملاق فخجلنا ولكن الابن لم يخف حزنه إذ ثبت له أن أناسا من صميم أسرته لا يستلطفون وجوده ويكرهون عمله الجميل» .

ربما أكون قد جنحت فى تفسير الحلم لكننى أرى فيه إسقاطا على ما حدث للابن العالم الذى حصل على جائزة نوبل بعد عودته إلى وطنه . . بيته . . أسرته العلَمية ليرد لها الجميل ، ولقد استقبلناه بالهيصة والزيطة والطبل والزمر والحفلات والعدسات ، لكننا عاملناه كأحد نجوم الفيديو كليب فقط ، والبعض قد سد فى وجهه الطريق ، وهناك بداخل الأسرة العلمية من لم يرتفع تجاهه عن الصغائر ، فعاد حزينا مدحورا . .

أما الحلم رقم «١٠٢» الذى كتب فيه نجيب محفوظ :

«أخيرا اهتدينا إلى مأوى فى الدور التحتانى من بيت قديم ولكن سرعان ما خنقنا برطوبته وظلمته وسوء مرافقه فسعينا من جديد حتى نقلنا إلى الدور الفوقانى وهو أفضل من جميع النواحى غير أن السماء أمطرت بغزارة غير معهودة فانسابت المياه من الأسقف فاضطررنا إلى تكويم العفش

وتغطيته بالأكلمة وغادرنا الشقة إلى بير السلم فشعر بنا ساكن الدور التحتانى الجديد فخرج إلينا ودعانا بإلحاح لا يُرَدُّ إلى الداخل حيث الدفء والرعاية».

هذا الحلم فى رأيى المتواضع يرسِّخ فى كلمات على أن نجيب محفوظ على الدوام مهموم برصد الطبقة المتوسطة التى هى بمثابة بوصلة مصر ورمانة ميزانها، وأى إصابة فيها أو معاناة لديها تنعكس على بقية الشعب.. والراصد لأدب محفوظ يجده أبدا لم يكتب عن الارستقراطية الحديثة أو يظهر الفلاحين فى أدبه ولا حتى على الهامش.. لقد كان مخلصا لتسليط الضوء على الطبقة الوسطى التى يخرج منها النبض الحقيقى والقيادات والاتجاهات. الطبقة الجينية لمصر التى يقرأ من خلالها عمق مصر الحقيقى وأمانها.. وفهمنا الخاص للحلم أن تلك الطبقة سعت للرفعة وبقيت راضية مستقرة، لكن سقفها ومرافقها ومحيطها قد تآكلوا بفعل التيارات والضغوط الفوقية والاقتصادية ومن ثم لم تعد ناقلة للأمان بعد أن غدت هلامية موقعها فى منطقة البين بين، نصفها فوق ونصفها تحت، ولم يكن هناك بديلا من ستر ما تبقى من إرث بقشرة الفولكلور «الأكلمة» والانزواء فى أقصى التدنى فى بئر السلم وأبدا لن يشعر بجراح تلك الطبقة التى كانت متوسطة وبلغت الأعالى إلا طبقة جديدة احتلت مكانها وغدت تعاملها بمنطق الرثاء والرأفة والتصدق على عزيز قوم ذل!

والحلم رقم «١٠٣» الذى جاء فيه :

«ماذا جرى ليلتها؟ جميع المقاعد تلاصقت وسُمِّرت قوائمها فى الأرض وخلت الأسقف من المصابيح والجدران من الصور والأرض من السجاجيد فماذا جرى ليلتها؟ قالوا بأنه إجراء لتأمين البيت لتعدد حوادث السطو على المنازل فـقلت دون تردد إن السطو أحب إليّ من القبح والفوضي» .

أستحلفكم بالله هنا أليس فى الحلم إسقاط يعنى أن الهرجلة وعدم التنظيم مع وجود الأساسيات والجماليات التى تحتاج فى ترتيبها إلى الخبرة أفضل بكثير من اللا شيء والجلوس على البلاط فى صفوف الفرجة الإلزامية على مسرحية إيشى ياخد الريح من البلاط بعدما تم السطو . !

سيدى الرائد الجليل..

أحلام سيادتك أوامر للعقل أن يعمل وللفكر أن ينهض وللقلب أن يخفق وللفن أن ينحنى وللتاريخ أن يسجل وللأدب أن يفتح الطريق بأوسع أبوابه لموكب مدرسة جديدة فى القصة القصيرة جداً التى أرسى نجيب محفوظ دعائمها . .

أحلامك يا سيدى هى الخلاصة . . اللب والجوهر . . القرب والبعد والعمق وقمم الارتفاع . . الجهات الأربع فى قلب بوصلة الحكيْ . . حصاد العمر فى سطور تلغرافية . . نجيب الذى يرى ما لا نراه بالحس

والاستشعار والموهبة والأدب والدأب والنظام . . نجيب الكاتب القارئ لكف الأدب الذى أدرك السرّ لأدب الدخول فى قرن جديد . . أزرار السرعة . . الإيجاز فى قالب حلم . . العمر فى جملة والعصر فى سطر والسنة فى كلمة ، والمشوار بأدق تفاصيله ومنحنياته وآلامه وأوجاعه وأوهامه وأحبابه وأعدائه يسرده محفوظ فى بلاغة نقطة فوق سطر يزاوج فيها المشاعر ويعقد قران حلم الواقع بدروب الخيال ، ويطرح شقاوة الصبا فى مربع وقار الكبار . .

نجيب محفوظ . . الله عليه من قلب شاب جامح وضّاء البيان والبديع ينفض عن كاهله عباءة غضون السنين ليظل أبداً شامخاً مداداه العنفوان ودماؤه شرخ الشباب . .

سيد الأساتذة..

عذراء هذه الدنيا . . دنيا الأحلام . . التى غدت دنياك . . وحدك من عقد قرانه عليها مثنى وثلاث ورباع . . عُرفاً وشرعاً . . خفية وجهراً . . حلوها ومُرها تحت لوائك . . أنت آمرها وناهيها ، وملكها وجلادها ، وسطوها وسلواها ، ومكتشف كنوزها وعالم أسرار غيبها ، ومستشعر مفاتنها ودقائق حسنها وجمالها . . دنياك التى أسقطت فيها الحائط الرابع لتغدو الذكريات بشخوصها حلم الماضى والحاضر والغد يتآلف فى بعث جديد له دلالاته وحنكته . . «أحلام نجيب محفوظ» . .

أستاذ نجيب . . أستاذى . . مفتاح نجاح نصف الدنيا . . التاج على جبينها فقد خصصتها وحدها دون صحاف العالمين بنشر إنتاجك وأحلامك . . نجيبنا ومحفوظنا . . هل من مزيد للطامعين . . للشرقانين . . للظمأى . . للحلم رقم مليون . .

نجيب محفوظ . . أبقاك الله لنا . . تكتب . . وتحلم . . فمن غيرك يحلم ويكتب . . اكتب نقرأ . . احلم نقرأ . . أوجز . . تتفتح مفاهيمنا على أدق التفاصيل . .

سناء البيسى

حـلم ١

أسوق دراجتى من ناحية إلى أخرى مدفوعا بالجوع باحثا عن مطعم مناسب لذوى الدخل المحدود ودائما أجدها مغلقة الأبواب وحانت منى التفاتة إلى ساعة الميدان فرأيت أسفلها صديقى فدعانى بإشارة من يده فملت بدراجتى نحوه وإذا به على علم بحالى فاقترح علىّ أن أترك دراجتى معه ليسهل علىّ البحث فنفذت اقتراحه وواصلت البحث وجوعى يشتد وصادفنى فى طريقى مطعم العائلات فبدافع من الجوع واليأس اتجهت نحوه على الرغم من علمى بارتفاع أسعاره ورآنى صاحبه وهو يقف فى مدخله أمام ستارة مسدلة فما كان منه إلا أن أزاح الستارة فبدت خرابة ملأى بالنفايات فى وضع البهو الفخم المعد للطعام فقلت بانزعاج .

ماذا جرى؟

فقال الرجل :

أسرع إلى كبابجى الشباب لعلك تدركه قبل أن يشطب ، ولم أضيع وقتا فرجعت إلى ساعة الميدان ولكننى لم أجد الدراجة والصديق .

حلم ٢

دخلنا الشقة . . الفتاة فى المقدمة وأنا فى أثرها والبواب يتبعنا حاملا الحقيبة. الفتاة على صلة بى مؤكدة وكأنها غير محددة. تركنا ترتيب الأشياء ودلفت إلى الشرفة المطلة على البحر سابحا فى آفاقه غير المحدودة منتعشا بهوائه الرطيب منتشيا بهديره المتقطع. وإذا بصرخة تنطلق من الداخل فهرعت نحوها فرأيت الفتاة منكمشة مذعورة والنار تشتعل فى أعلى الباب. وقبل أن أفيق من الصدمة دخل رجل صلب الملامح كأنما قدت من صخر وبإشارة من يده انطفأت النار وتحول ذاهبا وهو يقول:

ربما انقطعت المياه بعض الوقت. وغمرنى الارتياح فلم أبال بشىء، غادرت الحجرة قاصدا السوبر ماركت لأبتاع بعض التموين المناسب. ولما رجعت وجدت باب الشقة مفتوحا والبواب واقفا فدخلت أنا الحجرة قلقا فوجدتها عارية إلا من بقجة منتفخة بالملابس ملقاة على الأرض وذراع بيجامتى يتدلى من فتحة رابطتها ولا أثر للفتاة فسألت:

ماذا جرى؟

فأجابنى البواب:

حضرتك أخطأت الطريق وهذه ليست شقتك. فأشرت إلى ذراع البيجاما وقلت:

هذه بيجامتى.

فقال الرجل بهدوء :

يوجد من نوعها آلاف فى السوق

وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكرا أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة فى صف واحد وهبطت السلم بسرعة وفى الطريق رأيت الفتاة تسير فى طرفه المفضى إلى ميدان مكتظ بالسيارات والبشر فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب فى الزحام .

حلم ٣

هذا سطح سفينة يتوسطه عامود مقيد به رجل يلتف حوله حبل من أعلى صدره حتى أسفل ساقيه وهو يحرك رأسه بعنف يمنة ويسرة ويهتف من أعماقه الجريحة .

متى ينتهى هذا العذاب

وكان ثلاثتنا ينظرون إليه بإشفاق ويتبادلون النظر فى ذهول

وتساءل صوت

من فعل بك ذلك؟

فأجاب الرجل المعذب ورأسه لا يكف الحركة

أنا الفاعل

لماذا؟

هو العقاب الذى أستحقه

عن أى ذنب؟

فصاح بغضب

الجهل

فقلت له

عهدنا بك ذو حلم وخبرة

جهلنا أن الغضب استعداد فى كل فرد

وارتفع صوته وهو يقول :

وجهلت أن أى إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة مهما يهن شأنه

وغلبنا الحزن والصمت .

حلم ٤

بهو مترامى الأركان متعدد الأبواب خال من كل شىء فوقف ثلاثتنا فى ركن مكنون ، صاحباى يرفلان فى كامل حليتهما حتى رباط العنق على حين اكتفيت أنا بالجلباب المغربى ودون شعور بأى حرج لشدة الألفة التى تجمعنا ، سمعت حركة ، نظرت فرأيت رجلا لا أدرى من أين جاء فى ملابس رسمية توحى بأنه ممن يشرفون على الحفلات تلففت فى جلبابى وقلت لصاحبى :

أخاف أن يقام حفل!

فقالا بالتتابع

لا أظن

لا أهمية لذلك

وجدت حركة أخرى فنظرت فرأيت رجلين ماثلين للأول قد انضما إليه فزال كل شك وهربت إلى أقرب باب وفتحته وكأنى وجدت وراءه سداً من جدار البهو، فكررت المحاولة مع الأبواب جميعاً وخاب مسعاى كالمرة الأولى رجعت إلى صاحبىّ واندسست بينهما كأنما أستتر بهما.

وطمأننى بعض الشيء أن الرجال الثلاثة لم يعيرونا أى التفات

وتتابعت الحركات وانهمر سيل من المدعوين من كافة النواحى

وأخذوا يملأون المكان دون أن ينظر نحونا أحد مركزين أبصارهم فى ناحية واحدة فلم نملك إلا أن نفعل فعلهم وبدا فجأة شخص جليل فى هيئة الزعامة فتعالت فعقعات الهتاف. وكلما تقدم الرجل خطوة اشتد الهتاف ولكنهم حذروه فى الوقت نفسه من السير نحو الباب الذى بدا أنه يقصده وقلت لصاحبى:

سيفتح الباب عن سد لا منفذ فيه

وتقدم الزعيم وسط هتاف متصاعد وتحذير مستمر حتى فتح الباب ودخل مختفيا عن الأنظار.

حلم ٥

أسير على غير هدى وبلا هدف ولكن صادفتنى مفاجأة لم تخطر لى فى خاطرى فصرت كلما وضعت قدمى فى شارع انقلب الشارع سيركا.

اختفت جدرانه وأبنيته وسياراته والمارة وحل محل ذلك قبة هائلة بمقاعدها المتدرجة وحبالها الممدودة والمدلاة وأراجيحها وأقفاص حيواناتها والممثلون والمبتكرون والرياضيون حتى البلياتشو، وشد ما دهشت وسررت وكدت أطير من الفرح. ولكن بالانتقال من شارع إلى شارع وبتكرار المعجزة مضى السرور يفتر والضجر يزحف حتى ضقت بالمشى والرؤية وتاقت نفسى للرجوع إلى مسكنى، ولكم فرحت حين لاح لى وجه الدنيا وآمنت بمجىء الفرح. وفتحت الباب فإذا بالبلياتشو يستقبلنى مقهقها.

حلم ٦

رن جرس التليفون وقال المتكلم:

الشيخ محرم أستاذك يتكلم

فقلت بأدب وإجلال:

أهلا أستاذى وسهلا..

إنى قادم لزيارتك.

على الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة على الرغم من أننى شاركت فى تشييع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت علىّ ذكريات لا تنسى عن أستاذى القديم فى اللغة والدين وما عرف عنه من وسامة الوجه وأناقة الملبس إضافة إلى شدته المتناهية فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته المقلوظة وقال دون مقدمات :

هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم يحتاج إلى تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها .

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق على الخوان وذهب .

حلم ٧

يا له من ميدان مترامى الاتساع مكتظ بالخلق والسيارات . وقفت على طوار المحطة أنتظر مقدم الترام رقم ٣ والوقت قارب المغيب . أريد العودة إلى بيتى على الرغم من أنه لا ينتظرنى أحد . ويهبط المساء وتغلب الظلام على أضواء المصابيح المتباعدة وشعرت بوحشة وتساءلت عن آخر الترام رقم ٣ جميع الترامات جاءت وحملت من المنتظرين من حملت ولكن لا أدرى ماذا حصل للترام ٣ . وخفت حركة الميدان وقل مرور السبلة حتى كدت أتركه وحيدا فى المحطة فى ميدان خال أنتظر تراما لا يجىء وسمعت

صوتا خفيضا فنظرت، فرأيت على مبعدة يسيرة فتاة ينطق مظهرها بأنها من بنات الليل فازداد شعورى بالوحشة واليأس وسألتنى :

ـ أليست محطة الترام رقم ٣ ؟

فأجبت بالإيجاب وفكرت فى مغادرة المحطة وإذا بالترام رقم ٣ يقترب فى هدوء ولا أحد فيه سوى السائق وقاطع التذاكر، وشىء من داخلى دعانى إلى عدم الركوب فوليت الترام ظهرى ولبثت على حالى حتى غادر الترام المحطة. ونظرت فرأيت الفتاة بموقفها، ولما شعرت بعينى ابتسمت وسارت نحو أقرب منعطف فتبعتها على الأثر..

حلم ٨

عندما أقبلت على مسكنى وجدت الباب مفتوحا على ضلفتيه على غير عادة، وجاءتنى من الداخل ضوضاء وأصداء كلام.

دق قلبى متوقعا شرا، ورأيت من أحبابى ابتسامات مشفقة، وسرعان ما عرفت كل شىء، خلت الشقة من الأثاث الذى كوم فى ناحية داخل المكان.. عمال من متفاوتى الأعمار، منهم من دهن الجدران ومنهم من يعجن المونة ومنهم من يحمل المياه.. وهكذا نفذت المكيدة فى أثناء غيابى وذهبت توسلاتى فى الهواء.

وهل أطيق هذا الانقلاب وأنا على تلك الحال من الإرهاق؟

وصحت بالعمال من أذن لكم ذلك، ولكنهم استمروا فى عملهم دون أن يعيرونى أى اهتمام، وقهرنى الغضب فغادرت الشقة وأنا أشعر بأننى لن أرجع إليها مدى عمرى وعند مدخل العمارة رأيت أمى مقبلة بعد رحيلها الطويل وبدت مستاءة وغاضبة وقالت لى:

أنت السبب فيما حصل!

فثار غضبى وصحت:

بل أنت السبب فيما حصل وما سوف يحصل..

وسرعان ما اختفت وأمضت فى الهرب.

حلم ٩

على أريكة فى حديقة المنزل الصغيرة جلست أختى تتأمل ضفدعا يسبح فى القناة التى تروى الحديقة. وانتشيت بالنسيم الرقيق وعناقيد العنب المدلاة من التكعيبة.

وسألت أختى ماذا تنتظرين؟

وقبل أن تجيبنى قلت:

- من الأفضل أن نجلس فى الحجرة لنسمع الفونوغراف وتبادلنا نظرة اختيار ثم انتقلنا إلى الحجرة وازداد الجو صمتا وحتى النسيم لم يعد معنا.

ونظرت إلى أختى فإذا بها قد تحولت إلى الممثلة السينمائية جريتا جاربو وهى ممثلتى المفضلة وطرت من السعادة بغير أجنحة .

وملأ السرور جوانحى . غير أن ذلك السحر لم يدم طويلا . وأردت أن أستعيد المعجزة السحرية مرة أخرى ولكن أختى رفضت الذهاب معى . فسألتها عن سبب الرفض فقالت :

- أمى .

فقاطعتها قبل أن تتم عبارتها

- إنها لا تدرى

فقالت بيقين

- إنها تدرى كل شىء .

وشعرت بأن الحزن غشى كل شىء كأنه شابورة مفاجئة .

حلم ١٠

جمعتنا الصداقة والنشأة وتواعدنا فى تلك الحارة وذيول الليل تهبط . ولا هدف لنا إلا الانشراح باللقاء والاستسلام للمزاح والضحك على طريقة القافية .

وتبادلنا النكات وأخذنا نتحول إلى أشباح فى الظلام وتعارفنا

بأصـواتنـا ، ولـم نكـف عـن المزاح والقـافـيـة وانطلقت قـهـقـهـاتنـا تـرج الجدران وتوقظ النيام. الحـارة متعـرجة ونحن نتقـارب حتى لا نذوب فى الظلمة وكلما تمادينا فى الحيرة غالينا فى الضحك وبدأنا نتساءل حتى نجد خلاصنا فى ميدان أو شارع كبير.

وذكـرنا أحـدنا بأن الملكة الفـرعـونيـة التى أرادت الانتـقـام من الكهنة الذيـن قتلوا زوجـهـا دعتـهـم إلـى مكان يشـبـه هـذا الـذى يغـبطون فـيـهـا وسلطت عليـهـم الميـاه وما كـاد يفـرغ من حكايته حتى هطلت السـمـاء علينـا بقوة غير معهودة وأسكتنا الرعد ومضت المياه ترتفع حتى غطت أقدامنا وزحفت على سيقاننا وشعرنا بأننا نغرق تحت المطر فى ظلم الليل ونسينا نكاتنا وضحكاتنا ولم يعد لنا من أمل فى الخلاص إلا أن نطير فى الفضاء.

حلم ١١

فى ظل نخلة على شاطئ النيل استلقت على ظهرها امرأة فارعة الطول ريانة الجسد. وكشفت عن صدرها ونادت يزحف نحوها أطفال لا يحصرهم العد. وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة وكلما انتهت جماعة أقبلت أخرى وبدا أن الأمر أفلت زمامه وتمرد على كل تنظيم. وخيل إلىّ أن الحال تقتضى التنبيه أو الاستغاثة ولكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل. وحاولت النداء ولكن الصوت لم يخرج من

فمي وأطبق على صدرى ضيق شديد. أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلدة على عظم. ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى. وشعرت بأنه كان يجب علىَّ أن أفعل شيئا أكثر من الغذاء الذى لم يخرج من فمي وأذهلنى أن الأطفال بعد يأس من اللبن واللحم التحموا فى معركة وحشية فسالت دماؤهم وتخرقت لحومهم. ولمحنى بعض منهم فأقبلوا نحوى أنا لعمل المستحيل فى رحاب الرعب الشامل.

حلم ١٢

فى الجو شيء مثير للأعصاب، فهو من عدة نواح تبرز رءوس وتختفى بسرعة. وجرت شائعة مثل الشهاب تنذر بوقوع الحرب. وترددت كلمة «الحرب» على الألسنة، وعمت الحيرة والانزعاج ورأيت من يحمل تموينا لتخزينه. وجعلت أتذكر تلك الأيام المكدرة، هل نبقى أم نهاجر؟ ولكن إلى أين؟

ولذت بمقر المكان الآمن من الخطر وجاء رجل من الأمن وقال صراحة: إن الدولة تريد أن تعرف طاقة الأسر على إيواء من يحتاجون إلى إيواء لا سمح الله. وتضاعف الاضطرابات وأعلنت أمي وهى تعيش وحدها فى بيت كبير أنها على استعداد لإيواء أسرة كاملة. أما أنا فوجدت أننا يمكن الاستغناء عن حجرة واحدة تسع لشخصين وأصبحت حذرا عند سماع أى

صوت أو الإجابة على أى سؤال وطرق ببابى مخبر ودعانى إلى القسم ولما سـألته عن سبب الاستدعاء أجاب بخشونة أنه لا يعرف وقطع حديثنا انطلاق سفارة الإنذار.

حلم ١٣

هذا هو المطار. جوه يموج بشتى الأصوات واللغات. وكن قد فرغن من جميع الإجراءات ووقفن ينتظرن. اقتربت منهن وقدمت إلى كل منهن وردة فى قرطاس فضى وقلت :

- مع السلامة والدعاء بالتوفيق

فشكرننى باسمات وقالت إحداهن :

- إنها بعثة شاقة ونجاحنا يحتاج إلى أعوام وأعوام.

فأدركت ما تعنى وغمر الألم قلبى وتبادلنا نظرات وداع صامتة ولاحت لأعيننا مرات الزمان الأول.

وتحركت الطائرة وجعلت أتابعها بعينى حتى غيبها الأفق. وحال عودتى إلى بهو المطار لم أعد أذكر إلا رغبتى فى الاهتداء إلى مكتب البريد.

وكأننى ما جئت إلا لهذا الغرض وحده. وسمعت صوتا يهمس : أنت

تريد مكتب البريد؟ فنظرت نحوه ذاهلا فرأيت فتاة لم أرها من قبل فسألتها عن هويتها فقالت بجرأة:

ـ أنا بنت ريا. لعلك مازلت تذكر ريا وسكينة؟

فقلت وذهولى يشتد:

- إنها ذكرى مرعبة

فرفعت منكبيها وسارت وهى تقول:

- إن كنت تريد مكتب البريد فاتبعنى. فتبعتها بعد تردد غاية فى العنف.

حلم ١٤

تريضت على الشاطىء الأخضر للنيل، الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة. وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل. وإذا بصوت موسيقى يترامى إلىّ من ناحية الشارع المظلم صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها،

أدهشنى أنها لم تكن غريبة علىّ فى الموسيقى النحاسية التى كثيراً ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا، أما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة هى هى بطلعتها البرية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة، أخيراً تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدراً. وقمت واقفا منبهرا وتطلعت إليها بكل قوة روحى وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر. لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكنى سمعت طقطقة شىء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية!

حلم ١٥

بهو رضت على جوانبه المكاتب. . إنه مصلحة حكومية أو مؤسسة تجارية والموظفون بين السكون وراء مكاتبهم أو الحركة بين المكاتب.

وهم خليط من الجنسين والتعاون فى العمل واضح والغزل الخفيف غير خاف وأنا فيما بدا من الموظفين الجدد ومرتبى على قد حاله وشعورى بذلك عميق ولكنه لم يمنعنى من طلب يد فتاة جميلة وهى كموظفة أقدم

وأعلى . والحق أنها شكرتنى ولكنها اعتذرت عن عدم الاستجابة لطلبى قائلة :

لا نملك ما يهيىء لنا حياة سعيدة

وتلقيت بذلك طعنة نفذت إلى صميم وجدانى .

ومن يومها تحسبت مفاتحة أى زميلة فى هذا الشأن على الرغم من إعجابى بأكثر من واحدة وعانيت مر المعاناة من العزلة والكآبة . . وألحقت بالخدمة فتاة جديدة فوجدت نفسى فى مكانة أعلى لأول مرة فأنا مراجع وهى كاتبة على الآلة الكاتبة ومرتبى ضعف مرتبها إلا أنها لم تكن جميلة بل الأدهى من ذلك أنى سمعت همسا يدور حول سلوكها وبدافع من اليأس قررت الخروج من عزلتى فداعبتها فإذا بها تداعبنى ، ومن شدة فرحى فقدت وعيى وطلبت يدها وقالت لى :

آسفة !

فلم أصدق أذنى وقلت وأنا أتهادى

مرتبى لا بأس به بالإضافة إلى مرتبك .

فقالت بجدية :

المال لا يهمنى

وهممت أن أسألها عما يهمها ولكنها ذهبت قبل أن أنطق . .

حلم ١٦

هنأنى الطبيب المساعد على نجاح العملية . . عقب إفاقتى من التخدير أشعر بارتياح عميق وبسعادة النجاة الصافية . دخلت الحجرة فجاءت الممرضة بكرسى وجلست مقتربة برأسها من رأسى تأملتنى مليا ثم قالت لى بهدوء شديد :

طالما كانت أمنيتى أن أراك راقدا بلا حول ولا قوة :

فنظرت إليها بدورى وقلت لها فى ذهول : ولكنى أراك لأول مرة فى حياتى فلماذا تتمنين لى السوء؟

فقالت باحتقار وحقد : جاء وقت الانتقام

وقامت وغادرت الحجرة تاركة إياى فى دوامة من الحيرة والقلق والخوف ، كيف تتصور تلك المرأة أننى أسأت إليها على حين أننى أراها لأول مرة فى حياتى وجاء الطبيب الجراح ليلقى علىّ نظرة فتشبثت به قائلا :

أدركنى يادكتور فإن حياتى فى خطر :

فأصغى إلىّ وأنا أقص عليه ما جرى وأمر بعرض الممرضات المكلفات بالخدمة فى العنبر علىّ ولكنى لم أعثر على الممرضة بينهن

وغادرنى الدكتور وهو يقول :

أنت هنا فى كامل الرعاية

ولكن صورة الممرضة لم تفارقنى

ولم تغب عنى الوساوس وكل من دخل الحجرة نظر إلىّ بغرابة كأننى أصبحت موضع تساؤل وشك وتراءى أمام عينى طريق طويل ملىء بالمتاعب.

حلم ١٧

تواصلت أحياء الجمالية والعباسية وأنا أسير وكأننى أسير فى مكان واحد. وخيّل إلىّ أن شخصا يتبعنى، فالتفت خلفى ولكن الأمطار هطلت بقوة لم نشهدها منذ سنين ورجعت إلى مسكنى مهرولا. وشرعت أخلع ملابسى، ولكن شعوراً غريبا اجتاحنى بأن شخصا غريبا مختف فى المسكن، واستفزنى استهتاره، فصحت به أن يسلم نفسه وفتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلا فى مساحته وقوته وقال بهدوء وسخرية «سلم أنت نفسك».

وملكنى إحساس بالعجز والخوف وأيقنت أن ضربة واحدة من يده كفيلة بسحقى تماما أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى وكان المعطف يهمنى أكثر ولكنى لم أتردد إلا قليلا وسلمته المعطف والمحفظة.. ودفعنى فألقانى أرضا. ولما قمت كان قد اختفى وتساءلت هل أنادى وأستغيث.

ولكن ما حدث مهين ومخجل وسيجعلنى نادرة ونكتة فلم أفعل.

وفكرت فى الذهاب إلى القسم، ولكن ضابط المباحث كان من أصحابى وستذاع الفضيحة بطريقة أو بأخرى

وقررت الصمت ولكنى لم أسلم من الوساوس.

وخفت أن أقابل اللص فى مكان ما وهو يسير هانئا بمعطفى، ونقودى.

حلم ١٨

وتم مجلسنا على الجانبين فى القارب البخارى.

بدا كل واحد وحده لا علاقة له بالآخرين وجاء الملاح ودار الموتور. الملاح فتاة جميلة، ارتعش لمرآها قلبى. أطلت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب، وركزت عينى رأسى فى رأسها النبيل وهى تمرق بنا فى النهر وتتناغم خفقات قلبى مع دفقات النسيم وفكرت أن أسير إليها لأرى كيف يكون استقبالها لى.

لكنى وجدت نفسى فى شارع شعبى لعله الغورية وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت على اللحاق بها..

وحيا فريق من المنشدين الحسين الشهيد.

وسرعان ما رجعت إلى مجلسى فى القارب وكان قد توغل فى النهر شوطا طويلا. ونظرت إلى مكان القيادة فرأيت ملاحا عجوزا متجهم

الوجه. ونظرت حولى لأسأل عن الجميلة الغائبة ولكنى لم أر إلا مقاعد خالية.

وقمت لأسأل العجوز عن الجميلة الغائبة.

حلم ١٩

انبهرت بالشقة الجديدة بعد تسلمها، ففحصت كل موضع بنظراتى، امتلأت جوانحي بالسعادة وقلت لنفسى من الآن يحق لى أن أشغل وظيفة وعليّ أن أسعى إليها دون تأخير.

وذهبت إلى السوق، المكان واسع المساحة مسوّر بسور من البناء المتين، وأظهرت أوراق ملكية الشقة فسمحوا لى بالدخول.

المكان مكتظ بالخلق، لمحت وجوها أحببتها كثيرا ولكنهن جميعا كن متأبطات أذرع رجالهن، وذهبت إلى النافذة المقصودة وقدمت أوراقى وفى مقدمتها أوراق ملكية الشقة الجديدة، وفحصها الرجل وسجلها وقال لى: «لا توجد الآن وظائف خالية، وسوف نتصل بك، فى الوقت المناسب».

شعرت بخيبة أمل وشعرت بأننى سأنتظر طويلا ورجعت مخترقا الجموع ومتأملا بعجلة الوجوه الجميلة التى أحببتها فى الماضى، ولبثت فى الشقة وحدى، وفى الطريق سمعت رجلا يقول بصوت جهير «لا معنى

لأن يملك شخص شقة دون أن يشغل وظيفة . . الأولى أن يتركها لغيره فيمن يحظون بفرص أكثر لشغل وظيفة» . . وكأنه يعنيني بقوله، وما دامت الفكرة وجدت فقد تتحول إلى واقع .

وساورني الشك والهم، وانتظرت ما يخبئه الغد بعين قلقة مؤرقة .

حلم ٢٠

خرجنا باحثين عن مكان طيب نمضي فيه بعض الوقت، ونظرنا إلى الهلال ثم تبادلنا النظر . ورأيت على ضوء المصباح رجلا عملاقا لم تر العين مثله أرسل عمودا لا مثيل لطوله نحو الهلال حتى بلغ طرفه . وراح بحركة ماهرة يفرد طيات نوره حتى استوى بدرا . وسمعنا أصوات تهليل فهللنا معها وقلت إنه لم يحدث مثل هذا من قبل فصدَّقت على قولي، وانساب النور على الكون رفعني على سطح الماء فهتفت «ليلة قمرية» فقلت «القارب يدعوننا» وركبنا ونحن في غاية السرور، وغنى الملاح رايداك والنبي رايداك، وأسكرنا الفرح فاقترحت أن نسبح حول القارب . وخلعنا ملابسنا ووثبنا إلى الماء وسبحنا ونحن في غاية الامتنان، ولكن القمر تراجع فجأة إلى الهلال واختفى الهلال . . انزعجنا انزعاجا لم نعرف مثله من قبل، ولكنني شعرت بأنه يجب مراجعة الموقف بما يتطلبه من جدية فقلت ونحن غارقان في الظلام «لنسبح نحو القارب» فقالت «وإذا ضللنا الطريق» فقلت «نستطيع أن نسبح حتى الشاطئ» فقالت «سنكون عاريين على الشاطئ» فقلت : فليؤجل التفكير في ذلك .

حلم ٢١

الشارع الجانبى لا يخلو من مارة وأناس فى الشُرفات، والسيدة تسير على مَهل وتقف أحيانا أمام معارض الأزياء.

يتعرض لها أربعة شبان دون العشرين، تتجهم فى وجوههم وتبتعد عن طريقهم، ينقضّون عليها ويعبثون بها، تقاوم والناس تتفرج دون أى مبادرة.. الشبان يُمزّقون ثوبها ويعرون أجزاء من جسدها، السيدة تصوّت مستغيثة، راقبت ما حدث فتوقفت عن السير وملكنى الارتياع والاشمئزاز ووددت أن أفعل شيئا أو أن يفعله غيرى ولكن لم يحدث شىء، وبعد أن تمت المأساة وفر الجناة.. جاءت الشرطة، وتغير المكان فوجدت نفسى مع آخرين أمام مكتب الضابط، واتفقت أقوالنا، ولما سُئلنا عما فعلناه كان الجواب بالسلب وشعرت بخجل وقهر، وكانت يدى ترتجف وهى توقع بالإمضاء على المحضر.

حلم ٢٢

كنا فى حجرة المكتب مشغولين ونظر إلى وجهى وقال إنك مشغول البال فقلت له بإيجاز وإعياء: الدواء لا تطيقه فقال أفهم ذلك وأقدره وأحمد الله الذى نجانى من مخالبه فسألته كيف نجا مما لا نجاة منه فقال «لى صديق له أخ صيدلى» فلما عرف شكواى أكد لى أنه يملك الحل.. وعرف

منى الأدوية اللازمة لى ولأسرتى شهريا وعرضتها على أخى الصيدلى فجاءنا بمثيل لها بأقل من عُشر الثمن.

فسألته عن مدى الخطورة فى العملية فطمأننى وحدثنى طويلا عن أساليب شركات الأدوية حتى أذهلنى وأزعجنى، ولم أتردد فكتبت له قائمة بالأدوية اللازمة لى شهريا وأنا أشعر بارتياح عميق.

وإذا به يقول لى «ولكنى أريد منك خدمة فى مقابل ذلك» فأبديت استعدادى لأداء ما يطلب.

فقال «أنا يزعجنى الهجوم على الروتين الحكومى والبيروقراطية وتأثر الحكومة بما يقال وبما يكتب وأريد منك أن تكرس قلمك للدفاع عن الروتين والبيروقراطية» فدهشت وسألته عن سر حماسه لما أجمع الناس عن نقده ورفضه فقال غاضبا: «يا أخى ما قيمة الموظف أمام الجمهور من غير الروتين والبيروقراطية؟» ودار رأسى حيرة بين الأدوية والروتين.

حلم ٢٣

أسير فى الشارع وأنا على بيِّنة من كل مكان فيه، فهو عملى ونزهتى، وأصحابى وأحبائى، أحيى هذا وأصافح ذاك، غير أنى لاحظت أن رجلا يتعدانى بمسافة غير طويلة وغير قصيرة، وبين كل حين وآخر يلتفت وراءه كأنما ليطمئن إلى أنى أتقدم وراءه. لعلى لم

أكن أراه لأول مرة ولكن على وجه اليقين لا تربطنى به معرفة أو مودة وضايقنى أمره فاستفزنى إلى التحدى . . أوسعت الخطى فأوسع خطاه، أدركت أنه يبيِّت أمرا فازددت تحديا ولكن دعانى صديق إلى شأن من شئوننا فملت إلى دكانه وانهمكت فى الحديث فنسيت الرجل وأنهيت مهمتى بعد الأصيل فودَّعته ومضيت فى طريق سكنى وتذكرت الرجل فالتفت خلفى فرأيته يتبعنى على نفس طبيعته . . تملكنى الانفعال وكان بوسعى أن أقف لأرى ماذا يفعل ولكنى بالعكس وجدت نفسى أسرع وكأنى أهرب منه وأخذ يساورنى القلق وأتساءل عما يريد. ولما لاح لى مسكنى شعرت بالارتياح وفتحته ودخلت دون أن أنظر خلفى ووجدت البيت خاليا فاتجهت نحو غرفة نومى ولكنى توقفت بإزاء شعور غريب يوحى إلىّ بأن الرجل فى داخل الحجرة.

حلم ٢٤

قررت إصلاح شقتى بالإسكندرية بعد غياب ليس بالقصير، وجاء العمال وفى مقدمتهم المُعلم وبدأ العمل بنشاط ملحوظ، وحانت منى التفاتة إلى شاب منهم فشعرت بأننى لا أراه لأول مرة، وسَرت فى جسدى قشعريرة عندما تذكرت أننى رأيته يوما فى شارع جانبى يهاجم سيدة ويخطف حقيبتها ويلوذ بالفرار، ولكنى لم أكن على يقين وسألت المُعلم عن مدى ثقته بالشاب دون أن أشعر الشاب بذلك فقال لى المعلم:

ـ إنه مضمون كالجنيه الذهب فهو ابنى وتربية يدى واستقر قلبى إلى حين، وكلما وقع بصرى على الشاب انقبض صدرى، وطلبا للأمان فتحت إحدى النوافذ المطلة على الشارع الذى يعمل فيه كثيرون ممن أعرفهم ويعرفوننى ولكنى رأيت حارة الجراج التى تطل عليها شقتى بالقاهرة فعجبت لذلك وازداد انقباضى، وجرى الوقت واقترب المساء فطالبتهم بإنهاء عمل اليوم قبل المساء لعلمى بأن الكهرباء مقطوعة بسبب طول غيابى عن الشقة.

فقال الشاب: «لا تقلق.. معى شمعة».. فساورنى شك بأن الفرصة ستكون مُتاحة لنهّب ما خف وزنه وبحثت عن المُعلم فقيل لى إنه دخل الحمام وانتظرت خروجه وقلقى يتزايد، وتصورت أن غيابه فى الحمام مؤامرة وأننى وحيد فى وسط عصابة، وناديت على المُعلم ونُذر المساء تتسلل إلى الشقة.

حلم ٢٥

رأيتها فى الحجرة معى. ولا أحد معنا، فرقص قلبى طربا وسعادة، وكنت أعلم أن سعادتى قصيرة. وأنه لن يلبث أن نفتح الباب ويجىء أحد.. وأردت أن أقول لها إن جميع الشروط التى أبلغت بها على العين والرأس ولكن تلزمنى فترة من الزمن ولكنى فتنت بوجودها فلم أقل شيئا، وناديت رغبتى.

فخطوت نحوها خطوتين لكن الباب فتح ودخل الأستاذ وقال بحدة «إنك لا تفهم معنى الوقت» واقتلعت نفسى وتبعته إلى معهده القائم قبالة عمارتنا وهناك قال لى «أنت فى حاجة إلى العمل عشر ساعات يوميا حتى تتقن العزف . ودعانى للجلوس أمام البيانو فبدأت التمرين وقلبى يحوم فى حجرتى . وسرعان ما انهمكت فى العمل .

وعندما سمح لى بالذهاب كان المساء يهبط بجلاله . وبادرت أعبر الطريق على عجل . ولكن لم يكن ثمة أمل فى أن تنتظرنى مدة غيابى .

وإذا برجل صينى طويل اللحية بسام الوجه يعترض سبيلى ويقول :

«كنت فى المعهد وأنت تعزف ، ولاشك عندى أنه ينتظرك مستقبل رائع» وانحنى لى وذهب وواصلت سيرى وأنا مشفق مما ينتظرنى فى مسكنى من وحشة .

حلم ٢٦

جمعنا مقهى بلدى ، وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تأليفه . . وقبيل الختام دعانا إلى الكشف عن القاتل . ومن دفع ثمن طلبه ، ووفِّقت إلى الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة . وبعد ساعة استأذنت فى العودة إلى بيتى . ولانشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتى وجدت نفسى أخيرا أمام المقهى مما أثار ضحك الجميع ، وتطوع أحدهم فأوصلنى إلى بيتى وودعنى وانصرف . وبيتى مكون من طابق واحد

وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة . . وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى ألفها صاحبنا وكان نذيرا بسقوط البيت على من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق رأسى . وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت بأقصى سرعة فى الهواء الطلق .

حلم ٢٧

فى سفينة عابرة للمحيط . أجناس من كل لون ولغات شتى . وكنا نتوقع هبوب ريح وهبت الريح واختفى الأفق خلف الأمواج الغاضبة ، إنى ذعرت ولكن أحدا لم يكن يعنى بأحد . وقال لى خاطر إننى وحيد فى أعماق المحيط . وأنه لا نجاة من الهول المحيط إلا بأن يكون الأمر كابوسا وينقشع بيقظة دافئة بالسرور . والريح تشتد والسفينة كرة تتقاذفها الأمواج . وظهر أمامى فجأة حمزة أفندى مدرس الحساب بخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب . كان الإهمال الواحد بعشرة خيرزانات تكوى الأصابع كيا . وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام .

وهممت بدق عنقه ولكنى خفت أن يكون أى خطأ سببا فى هلاكى فسكت على الذل وتجرعته رغم جفاف ريقى . ورأيت حبيبتى فهرعت نحوها أشق طريقا بين عشرات المذهولين . ولكنها لم تعرفنى وتولت عنى

وهى تعلن ساخطة وجرت نحو حافة السفينة ورمت بنفسها فى العاصفة واعتقدت أنها تبين لى طريق الخلاص فجريت متعثراً نحو حافة السفينة ولكن مدرس الحساب القديم اعترض سبيلى ملوّحا بعصاه.

حلم ٢٨

تتحلق المستديرة والنقود تذهب وتجىء، أما الفتاة الجميلة فكانت تقوم بالخدمة وتقديم المشروبات وأحيانا السندوتشات. وابتسم لى الحظ فربحت عددا من الجنيهات يعد كبيرا فى مجالنا المحدود وشعرت بدوار خفيف فأعلنت أننى سأنسحب، وعلى الرغم من أن أحدا لم يصدق عذرى إلا أننى انسحبت، وعند ذلك اتهم أحد اللاعبين الفتاة بأنها كانت تكشف لى خفية عن بعض أوراق اللعب فغضبت الفتاة كما غضبت أنا احتجاجا على التهمة البطالة. وقام الرجل ومعه آخران ونزعوا ثياب الفتاة حتى تبدت عارية وهى تصرخ وتهدد بإبلاغ الشرطة عن الشقة التى تدار للمقامرة وغيرها من المحرمات فسرعان ما عاد كل إلى مجلسه. وساعدت الفتاة على ارتداء ملابسها وغادرت المكان إلى مسكنى القريب.

وجلست أستريح فإذا بالفتاة تحضر وأخبرتنى أن المجموعة غاضبة وزادها السُكْر غضبا وتهدد باقتحام مسكنى وإشعال فضيحة فى الحى كله ونصحتنى أن أرد ما ربحته حلا للمشكلة، ولكنى قلت لها إنهم سيعتبرون

ذلك اعترافا بجريمة لم نرتكبها ، فقالت إن ذلك أهون مما يعتزمون ارتكابه وأذعنت لرأيها وسلمتها النقود وذهبت بها .

وعاد الهدوء لليل ولكنى لم أزل أتوقع فضيحة أو شرا من ذلك .

حلم ٢٩

المكان جديد لم أره من قبل . لعله بهو فى فندق وقد جلس الحرافيش حول مائدة . وكانوا يناقشوننى حول اختيار أحسن كاتبة فى مسابقة ذات شأن . وبدا واضحا أن الكاتبة التى رشحتها لم تحز أى قبول . قالوا إن ثقافتها سطحية . وإن سلوكها غاية فى السوء . وعبثا حاولت الدفاع . ولاحظت أنهم ينظرون إلىَّ بتجهُّم غير معهود وكأنهم نسوا عشرة العمر . وتحركت لمغادرة البهو فلم يتحرك منهم أحد وأعرضوا عنى بغضب شديد ، سرت نحو المصعد ودخلت وأنا أكاد أبكى . وانتبهت إلى أنه توجد معى امرأة فى ملابس الرجال ذات وجه صارم . قالت إنها تسخر بما يسمونه صداقة وإن المعاملة بين البشر يجب أن تتغير من أساسها . وقبل أن أفكر فيما تعنيه استخرجت مسدسا من جيبها ووجهته الىَّ مطالبة إياى بالنقود التى معى . وتم كل شىء بسرعة ولما وقف المصعد وفتح بابه أمرتنى بالخروج . وهبط المصعد ووجدتنى فى طرقة مظلمة وقهرنى شعور بأننى فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك .

حلم ٣٠

هذا بيتنا بالعباسية أدخل الصالة أمى تذهب إلى المدخل وأختى تجىء فتقف لحظات ثم تلحق بأمها . لم نتبادل السلام ولكنى أعلنت عن جوعى الشديد بصوت مسموع . لم يرد أحد فكررت الطلب . وسمعت أصواتا فى الحجرة المطلة على الحقل فذهبت إليها فوجدت أخى الأكبر يجلس صامتا ويتربع أمامه على الكنبة شيخ بالأزهر وقال الشيخ كلاما جميلا ولما انتهى قلت له إنى جائع فقال لى إن أحدا لم يقدم له القهوة ولا حتى قدح ماء فغادرت الحجرة وقلت بصوت تسمعه أمى وأختى أن يقدما القهوة لفضيلة الشيخ وأن يحضرا لى طعاما ولو قطعة خبز وجبنة . ولم أتلق إلا الصمت غير أنى سمعت حركة فى الحجرة المطلة على الفناء فأسرعت إليها وذكرت أنها حجرتى وفيها الفونوغراف والأسطوانات التى أحببتها فوجدت بنت الجيران التى كانت تزورنى لتستعير بعض أسطوانات سيد درويش خصوصا أسطوانة أنا عشقت وكانت تبحث عن إبرة لتسمع أسطوانة فقلت لها إنى جائع فقالت لى إنها جائعة أيضا . وغلبنى الجوع فغادرت الحجرة وصحت طالبا لقمة ولما لم أجد أى شىء غادرت البيت والمساء يظل الطريق والطريق خال وخفت أن تكون المحال قد أغلقت ولكنى اتجهت نحو المخبز منهوك القوى من الجوع وثمة أمل يراودنى .

حلم ٣١

أمتطى حمارا يسير بى وسط الحقول خطوات رتيبة وأنا خال من المشاعر تحت أشعة شمس الخريف. وترامى إلينا نباح كلب فتوقف الحمار فنخسته بكعبى فعاد إلى السير، وتعود النباح وتنوح فأحدد بصرى لأرى الرجل الذى أقصده. وظهرت امرأة محاطة بالعديد من الكلاب فهتفت فيها ألا تكف عن النباح فأذعنت لها فسلمت وقلت إنى قادم لمقابلة الشيخ بناء على خطابين متبادلين. قالت المرأة إنها صاحبة الأمر الأخيرة وأنها تستطيع أن تقدم الخدمات المطلوبة كما تستطيع أن تفنى من تشاء إن حرضت عليه الكلاب.

فقلت: إننى جئت للسلام لا للحرب وإنى أريد عملا. وأشارت إلىّ فنزلت عن ظهر الحمار ووقفت أمامها فى خشوع وسارت وتبعتها ومن خلفى الحمار تحيط بنا الكلاب. ووقفت أمام مبنى صغير فتوقف الركب كله. وأمرتنى بالدخول فدخلت وقالت لى أن أنتظر فى الداخل وحذرتنى من الخروج إلى الكلاب التى لا ترحم. فسألتها حتى متى ألبى. وماذا عن العمل؟ وأن الشيخ وعدنى خيرا ولكنها لم تحفل بكلامى وامتطيت الحمار وذهبت تاركة الكلاب حول المبنى. وكانت ترسل إلىّ باحتياجاتى مع رجال أشداء ولكنهم لاينبسون بكلمة وأفكر أحيانا فى الدخول مع الكلاب فى معركة حياة أو موت. ولكن يتغلب الأمل فأنتظر.

حلم ٣٢

حدثنى الزميل القديم فقال إنه ذاهب للعمل فى اليمن وقال لى إن ثمة كلاما يدور حول دعوتى للعمل فى اليمن وحثنى على القبول فوعدت بالتفكير فى الموضوع دون أن أبدى أى حماس له. وفى البيت الذى أعيش فيه وحيدا مع كلبتى فكرت فى الأمر على غير المتوقع. وشجعنى على ذلك نفورى من كلبتى الذى تولد منذ أخذ وجهها يتغير ويتخذ صورة وجه إنسان. كانت وهى كلبته خالصة جذابة ومسلية أما بعد التغيير المذهل فلم تعد كلبته ولا بلغت أن تكون إنسانا وسرعان ما أجد نفسى فى حجرة مكتبى فى اليمن وسكرتيرى الخاص واقف بين يدى وكانت الحرارة شديدة فسألت السكرتير عن حال الجو فى هذا البلد فقال لى إنه دافىء شتاء وشديد الحرارة بقية فصول السنة ولكن المبنى مرتفع جدا وكلما ارتفع تحسن الجو وأنه ما علىّ كلما ضقت بالجو أن أكتب التماسا للمدير للنقل إلى طابق أعلى. سررت بعد اكتئاب وقمت إلى النافذة ونظرت إلى أعلى فرأيت المبنى عظيم الارتفاع حتى خيل إلىّ أنه يلامس السماء.

ورأيت رءوسا تطل من النوافذ العالية فارتعش قلبى لرؤيتها إذ رأيت فيها وجوه أحبة الزمان الأول. سررت سرورا لا مزيد عليه وحمدت الله على قبولى الدعوة للعمل فى اليمن السعيد

حلم ٣٢

ماذا حَل بالشارع بل بالحىّ كله؟ . . على ذاك لم أكن أتوقع خيراً فيما أرى.

الحىّ كله كأنما هَرِم به العمر فذهب رونقه وتناثرت القمامة هنا وهناك، وصادفنى أحد العاملين فسألته:

- ماذا جرى؟

فأجاب وهو يبتسم:

- البقاء لله وحده، وسبحان مُغيِّر الأحوال.

وقصدت مسكن صديقى متوقعا أن يحيق به ما حاق بالحى كله أو أكثر، ولا أُنكر أنه كان وساطتى للحصول على بعض الأدوية الضرورية من الخارج كما كانت مكالمة تليفونية منه تحل أعصى المشكلات فى المصالح الحكومية، وجدته كاسف البال لا يأمل خيراً فى شىء . . فعزَّيته وقلت له إنه صاحب مهنة على أى حال.

فقال متهكّما:

- ستثبت لك الأيام أننا لسنا أسوأ من غيرنا.

وساءلت نفسى ترى هل يوجد حقاً ما هو أسوأ، وسرعان ما حضر نفر من الشبان والشابات، ومع كل حقيبته مَلأها بأشيائه المودعة فى الشقة مثل

البيجامات والملابس الداخلية والقمصان النسائية الفاتنة وداهنة وروائح عطرية.

وحمل كل حقيبته وذهب . . نطق كل شيء بما كانت تؤديه شقته من خدمات كما فطن بتدهوره . . وتساءلت في نفسي . . ترى هل كان ينعم بالفخر أو أنه تجرّع المذلة والقهر.

حلم ٣٤

عند منعطف من منعطفات الحارة، رأيت أمامي الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزنني غاية الحزن، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار، وتذاكرنا الأحزان والأفراح والليالي الملاح وطلبا مني زيارة سكني فمضيت بهما إليه على بُعد أمتار، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلا كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوى ثم سخرا مني بلسانيهما اللاذعين الجذابين، وسألاني عن عملي الذي أعيش منه، فأجبت بأنني عازف رباب وأتغنى بعذابات الحياة وغدر الدهر، وعزفت لهما وغنيت فقالا إنها حياة أشبه بالتسول ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو في وجهي من آثار الضعف والبؤس وقالا لي إنهما بحثا عني طويلا حتى عثرا عليّ، وتبين لهما أن قلقهما كان في محله وأنهما يبشرانه بالفرج . . حمدت الله على ذلك ولكن ما الذي يبشرانني به، قالا ستهاجر معنا إلى المكان الجميل والرزق الوفير، فسألت

كيف يتيسر لى ذلك فقالا إنهما ـ كما أعلم ـ يمتان بصلة لأصحاب النفوذ ولا خير يجىء إلا عن طريق أصحاب النفوذ.

وتأبطا ذراعى وسارا بى إلى الخارج، حتى بلغنا أحد الرجال العظام شكلا وموضوعا، واستمع للحكاية بوجه محايد، وقال لى إن الهجرة تحتاج لهجة عالية وصبرا طويلا، فوعدنى خيراً وقال الصديقان، إنهما يطمئناننى . . فقال:

ـ انتظرونى عند الجامع على طلوع الفجر.

حلم ٣٥

فى بيت العباسية ونحن نأوى إلى أسرتنا للنوم أيقظنى صوت ابن أخى وهو يصيح حريق فى السقف، ونهضت فزعاً وجاء ابن أخى بالسلم الخشبى وأقمناه فى الصالة وصعد كل واحد منا على جانب حاملاً ما استطاع حمله من الماء وأخذ يرشه على النار السارية بين الأركان، واقتحمت حجرة أختى . وأيقظتها من نومها العميق ومن عجب أنها قامت متكاسلة ومتشاكية من أننا لا نتركها أبداً تنعم بالنوم. وعلى أى حال ساعدتنا بملء الأوعية بالماء حتى سيطرنا على النار وأخمدناها. وبدأنا نحقق فى الأمر ولكن رجال المطافىء حضروا على أثر استدعاء الجيران لهم وتأكدوا من خمول النار وفتحوا الشرفات وتفقدوا الأثاث الموجود بها وانتهى الحريق بعد أن أفحمنا فزعاً. وعندما جلسنا نستعيد بعض هدوئنا

دق جرس التليفون، ويلاحظ هنا تداخل الزمان والمكان إذ إن بيت العباسية لم يكن به تليفون، وهكذا أصبحنا فى مسكن آخر مع أناس آخرين دق جرس التليفون وكان المتحدث صاحب العمارة التى أستأجرنا بها شقة فى الإسكندرية ودعانا الرجل إلى الإسكندرية دون إبطاء وأنه شبت النار داخل الشقة. وطمأننا أنه استدعى المطافىء فأخمدوا النار ولكن حضورنا ضرورى بطبيعة الحال. وفى الحال ارتدينا ملابسنا أنا وزوجتى وأسرعنا إلى محطة الباص الصحراوى وكنا فى غاية الكدر والانزعاج حتى أننى اقترحت على زوجتى إخلاء الشقة وتسليمها لصاحبها خاصة وأنها تعرضت إلى محاولة سرقة قبل ذلك ولكنها قالت لى انتظر حتى نرى ماذا ضاع منا وماذا بقى.

حلم ٣٦

جمعنا بهو ما. ثمة وجوه أراها لأول مرة ووجوه أعرفها جيداً من الزملاء. وكنا ننتظر إعلان نتيجة يا نصيب. وأعلنت النتيجة وكنت الرابح وكانت الجائزة فيلا حديثة. وحصل زياط وتعليقات وتوهان. ولم تستطع وجوه كثيرة أن تخفى كمدها. وقال لى كثيرون إنه فوز ولكنه خازوق من أين لك المال لتأثيثها وتوفير الخدم اللازمين لها واستهلاكات الماء والكهرباء وخدمة حوض السباحة والتكييف الخ؟

الحق أن الحلم مازال حلما وها أنا أتفقد الفيلا كل يوم تقريبا وأرجع

بالخيبة والحسرات. واستغل أناس قلة خبرتى وأقنعونى ببيعها واشتروها بثمن فرحت به ساعات حتى تبين لى أننى خدعت وسرقت.

وحدث فى ذلك الوقت أن خلت وظيفة مدير عام وكثر التزاحم حولها والمرشحون وبطاقات ذوى النفوذ وقابلت الوزير وقلت له إننى لا وسيط لى سواه ولكنه قال لى إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص فكيف أأتمنك على المال العام.

وصرت نادرة ومثالا فطلبت ضم المدة الباقية لى فى الخدمة إلى خدمتى وإحالتى إلى المعاش وأخيراً وجدت الطمأنينة فى موضع لا يتطلع إليه طماع ولا ينظر إليه ذوو الطموح.

حلم ٣٧

المحمل يتمايل فوق الجمل المزين بالألوان والورود. أمامه رجل يغرس فى فيه عامودا ذا رأس تدلى منه شراشيب ورأس الجمل فى مستوى أول طابق من بيت أطل أنا من نافذته وتلاقت عينى مع عين الجمل فقرأت فيها ابتسامة وغمرة وحلت لى البركة فطرت من موقعى وراء النافذة ودرت حول رأس الجمل بجلبابى وشعرى المنفوش وكبرً الناس وهللوا وزهلوا لوقوع المعجزة وتماديت أنا فارتفعت فى الجو وتراجعت نحو سطح بيتى وهبطت. وبعد مرور المحمل تجمع الناس أمام البيت يريدون مشاهدة الإنسان الطائر. وإذا بهم يتحولون فجأة من

الإعجاب إلى الخوف والحذر وقالوا إن روحا شريرة حلت بالشخص الطائر وأن طيرانه حول رأس الجمل نذير شؤم للناس جميعا وإنه يجب أن يبرأ من الشيطان ذلك بجلده حتى يتطهر تماماً فإذا رفض الدواء عرض نفسه للعقاب المناسب وهو القتل، وركب الرعب الشاب وأسرته واستنجدت الأسرة بالشرطة واشترط المأمور أن يرى المعجزة وهى تحدث أمام عينيه وذهب إلى البيت ورأى المعجزة وبهر بها حقا ولكنه وجد نفسه بين رأيين. الأسرة تقول إنها كرامة من كرامات الأولياء والناس تؤكد أنه عبث من الشيطان ونذير شر.

وأخيراً قرر المأمور أن يضع الشاب فى السجن حتى ينسى الموضوع برمته.

حلم ٣٨

فى حجرتى جالس أستمع إلى أغنية يذيعها الفونوغراف. دخلت من الباب المفتوح فتاة فى العشرين جميلة ورشيقة ومثيرة. اكتسحتنى دهشة ورغبة فقمت من مجلسى واتجهت نحوها حتى وقفت قبالتها. وبهدوء مدت يدها بخطاب فتناولته ونظرت فيه ثم رددته إليها وأنا أقول لها إننى لا أستطيع القراءة لضعف بصرى وطلبت منها أن تقرأه هى ولكنها اعتذرت بأنها لا تقرأ ولا تكتب وأن والدها كتبه للأمير المسطر اسمه على الظرف ووصاها والدها قبل وفاته بأن تجيئنى بالخطاب

لأحمله إلى الأمير. وقلت لها ودهشتى تتزايد إننى لا أعرف الأمير ولا أى أمير غيره وساورنى الارتياب من ناحيتها وحاولت تغيير الموضوع ولكنها ذهبت.

وعندما كنت أعبر جسر قصر النيل فى طريقى إلى عملى ظهرت لى عند نهايته فتجاهلتها ولكنها تبعتنى مسافة غير قصيرة.

وعندما عدت إلى مسكنى وجدتها مستقرة. حذرتها من أن تعود إلى موضوع الخطاب والأمير. ومر وقت طيب ولكنى لم أخل من الوساوس. والظاهر أنها لم تخل كذلك من مخاوف. وكان واضحاً أننا نريد الهرب بطريقة أو بأخرى.

حلم ٣٩

دخلت حجرة الوزير ومعى بيان مكتوب على الآلة الكاتبة بأسماء الموظفين المرشحين للترقية. اسمى بينهم وواضح أن الوزير يخصنى بالرعاية.

وقَّع الوزير البيان فى أعلاه وذهبت به إلى إدارة المستخدمين لتنفيذه. اتجهت إلى الموظف المختص وكانت فتاة شابة وجميلة. نظرت فى البيان ولاحظت أن الوزير وضع إمضاءه فى أعلاه وأنه يجب أن يضعه فى أسفله. وإلا فإنها لن تستطيع تنفيذ أمر الترقية أو على الموظفين المسجلين

فى أعلاه. اغتظت ـ شكوت ما نلاقى من الروتين ولكنها أصرت على موقفها فحملت البيان من جديد إلى الوزير فوقَّع اسمه فى الموضع الصحيح وهو يضحك. ورجعت إلى الفتاة وسلمتها البيان. وكانت تجلس على يمين مكتبها موظفة صديقة معروفة بالمرح فدافعت عن تصرف زميلتها قائلة إنها تضن بالترقية على الموظفين العزَّاب وترى أن المتزوجين أولى بها. وتظاهرت الموظفة بأنها تضايقت من إذاعة هذا السر. ولما قابلتنى الموظفة المرحة بعد ذلك سألتنى عن رأيى فى موظفة المستخدمين فصارحتها بأنها أعجبتنى فاقترحت أن تبلغها بإعجابى كمقدمة لجمع رأسين فى الحلال. فطلبت مهلة للتفكير فقالت إننى لم أعد شابا وإن عمرى يضيع فى التفكير وأصرت على إبلاغها واستسلمت فلم أرفض..

حلم ٤٠

قبيل المساء وأنا عائد إلى بيتى متدثِّرا بالمعطف والكوفية اعترض سبيلى صبى وصبية غاية فى الجمال والتعاسة وطلبا منى ما أجود به لوجه الله وبحثت فى جيبى عن فكة فلم أجد فأخرجت ورقة من ذات الجنيهات الخمسة وطلبت من الصبى أن يذهب إلى أقرب كشك ويشترى لى قطعة شيكولاتة ويجيئنى بالباقى. وما غاب الصبى عن عينى حتى بكت الصبية واعترفت لى بأن أخاها يعاملها بغضب شديد ويدفعها لارتكاب الأخطاء

فهى تزداد كل يوم انحرافا وشرا وتدعو الله أن ينقذها مما تعانى. تأثرت وتحيرت. ثم عرفت أن الصبى لن يعود وأدركت مدى حماقتى لما أوليته من ثقة وتذكرت كيف يتهمنى أهلى بالطيبة والغفلة، ولكنى لم أترك له أخته وأخذتها إلى بيتى لتبدأ حياة جديدة مع أهلى. وتحسنت أحوالها وبدت وكأنها من الأسرة لا شغالة لها.

وذات يوم جاء لى شرطى ومعه الصبى الأخ ولما رأى أخته أمسك بها. وعلمت أنى مطلوب فى القسم. وهناك وُجِّهت إلىَّ تهمة اغتصاب البنت والاحتفاظ بها فى بيتى بالقوة. وذُهلت أمام ما يوجه إلىّ وطلبت من البنت أن تتكلم فبكت ووجهت إلىَّ من الكبائر ما لم يخطر لى على بال. وكان المحضر يسجل كل كلمة والدنيا تسود فى عينى وعلى الرغم من إيمانى الراسخ فلم تغب عنى خطورة الموقف.

حلم ٤١

قال لى السمسار: لا تضجر ولا تيأس يلزمك الصبر الجميل. وكنت أعرف أنه على علم بسر قلقى. وأننى مهدد بأن أفقد المأوى وأجد نفسى فى الطريق. قلت له بأننى رأيت من المساكن عدد شعر رأسى ولكن الأسعار دائماً فوق قدرتى. وما هذه المساكن الخيالية التى يقدر ثمن الشقة فيها بالمليون. والعجيب أنه أكد لى أن أربع زميلات لى يملكن شققا فى هذه المساكن الخيالية. وغبطهن على قدراتهن

الخارقة. وقال لى الرجل إن الأمل الأخير فى عمارة الحاج على بحى الحسين وأن علينا أن ننتظر عودته من الحج. وقلت له إننى أذكره من أيام إقامتنا فى الحى العتيق وإننى كنت أشترى منه الفول أحياناً بنفسى فضحك الرجل وقال إن هذا ما يقوله الكثيرون ممن يرجون امتلاك شقة فى عمارته الجديدة.

قلت بخوف: إنه الأمل الأخير.

فقال بلهجة مشجعة «عليك بالصبر الجميل».

حلم ٤٢

السفينة تشق طريقها بين أمواج النيل الرزينة. نحن جلوس على صورة دائرة يقف فى مركزها الأستاذ. وضح أننا نؤدى الامتحان النهائى. وكان مستوى الإجابات ممتازا. وتفرقنا نشرب الشاى ونأكل الجاتوه. وتسلمنا شهادات النجاح وعند المرسى وقفت السفينة وغادرناها وكل يحمل شهادته فى مظروف كبير. ووجدت نفسى أسير فى شارع عريض خال من المبانى ومن المارة. ولاح لى مسجد يقوم وحيدا فاتجهت نحوه لأصلى وأرتاح قليلا. ولكن تبيَّن لى حال دخولى أنه بيت قديم. هممت بالرجوع ولكن جماعة من قطاع الطريق أحاطوا بى وأخذوا الشهادة والساعة والمحفظة وانهالوا علىَّ ضربا ثم اختفوا فى أرجاء البيت.

خرجت إلى الطريق وأنا لا أصدق بالنجاة. وبعد مسيرة يسيرة صادفتنى دورية من الشرطة فهرعت إليهم وحكيت لقائدهم ما وقع لى.

وسرنا جميعا نحو بيت اللصوص، واندفعوا داخلين شاهرى أسلحتهم ولكننا وجدنا أنفسنا فى مسجد والناس يصلون وراء الإمام. وحصل ذهول وتراجعنا مسرعين وأمر قائد الدورية بإلقاء القبض علىّ. وجعلت أؤكد ما وقع لى وأقسم بأغلظ الأيمان، ولكن وضح لى أنهم أخذوا يشكون فى عقلى على أنى لم أكن دونهم حيرة وذهولا.

حلم ٤٣

ليلة زفاف ابن عمى تقام فى بيتنا بالعباسية بين الطبل والأغانى. يتقدم ابن عمى تتأبط ذراعه عروسه فى حلة العرس. وقبل أن يصعدا السلم إلى الداخل يعترضهما مفتش الشرطة. ذهلنا وتساءلنا عما وراء ذلك. انقض المفتش على العروس فتفحص وجهها وأخذ بصمتها على لوح صغير وفحصه بمنظار مكبر وألقى القبض عليها وسار بها إلى سيارة الشرطة. وأدرك الجميع ما يعنيه ذلك وأقبلوا على ابن عمى يواسونه ويحمدون الله الذى نجاه من شر أوشك أن يطوقه، ورغم ذلك فقد مضى الشاب وهو يبكى. وقررت أن أمضى الليلة فى بيت العباسية مع أهلى ولكنى اكتشفت أن جميع مصابيحه الكهربائية معطلة. فسألت أختى كيف يعيشون فى الظلام. واكتشفت أيضا أن جدرانه تحتاج إلى

ترميم ودهان. وضقت بالمكان ونويت أن أصلحه، وأعيده إلى رونقه القديم.

حلم ٤٤

وجدت نفسي جالسا أمام مكتب وزير الداخلية. منذ أيام قلائل كان زميلي في الجريدة وكان اختياره وزيرا للداخلية مفاجأة وانتهزت الفرصة وطلبت مقابلته فاستقبلني بمودة وترحاب وعرضت عليه مطلبي وهو توصية لرجل أعمال معروف بصداقته له فاختاره في وظيفة معينة في شركة من شركاته. وكتب بخط يده التوصية المطلوبة وانتهت المقابلة على أحسن حال. وفي مساء اليوم نفسه وأنا أمشي على شاطيء النيل اعترضني رجل ممن نسمع عنهم في الصحف وأشهر عليّ سلاحا وسلب مني نقودي. كانت في حدود خمسين جنيها.

رجعت إلى منزلي مضطربا ولكني لم أتخذ أي إجراء يؤثر في الميعاد الذي حدده لي رجل الأعمال. وعند الضحى كنت في مكتبه وبعد دقائق سمح لي بالدخول في مكتبه وقدمت التوصية، تجمدت في موقفي وكانت لحظة غاية في الحرج قلت في نفسي «رباه... إنه اللص الذي سرقني أو أخوه التوءم ودارت بي الأرض.

حلم ٤٥

على سطح البحيرة ينطلق قاربى البخارى وذاك قارب آخر يتبعنى أو هكذا خيل إلىّ. وأسرع فيسرع وساورنى القلق. ولكن لماذا يتبعنى ؟

ووجدتنى أقترب من مرسى فخم فرسوت وصعدت سلما إلى شرفة واسعة وعرفت أنها تتبع السفارة الروسية وكانت الشرفة مليئة بالمعزين الذين جاءوا يعزون فى وفاة فقيدة عزيزة .

وسلمت على السفير وجلست أسمع مايقال عن الفقيدة. وأنظر إلى البحيرة فلا أرى أثرا للقارب الآخر فاطمأن قلبى .

وقمت فى الوقت المناسب إلى قاربى وانطلق بى فى اتجاه الشاطئ الآخر ونظرت خلفى فرأيت القارب الغريب وهو ينطلق ورائى وكنت بلغت وسط البحيرة فرأيت من الأفضل أن أسير إلى الشاطئ عن الرجوع إلى السفارة وقلت إنه عند الشاطىء تتضح حقيقة الموقف للمواجهة بكل قوة .

حلم ٤٦

جمعتنا حديقة. درج صاحبنا يغنى ونحن نسمع ونطرب ويعلو منا هتاف الوجد والاستحسان. وأزعجنا العباد فشكونا إلى الشرطة. ورأينا الشرطة قادمة فتفرقنا لائذين بالفرار. جريت فى الاتجاه الذى اتفق وكلما

نظرت خلفى رأيت الشرطى يجرى فى أثرى بكل قوة وإصرار. وظهر لى شخص يجرى أمامى وكأنه يفر منى. من يكون ذلك الشخص؟

ذكَّرتنى رشاقته وجميل قوامه بالحبيبة الغائبة اطَّرد الجرى. الشرطى يريد اللحاق بى وأنا أرى أن أهرب منه وألحق بالحبيبة. وهكذا صعدنا البرج وفوق سطحه منَّتنى النفس باحتضان حبيبتى ولكنها تخطت السور وهوت من ذلك العلو الشاهق إلى الأرض. فقدت عقلى وزاد من تعاستى اقتراب الشرطى فوثبت من فوق السور وراء حبيبتى. توقعت أفظع ألم وكان لارتطامى بالأرض دوى مثل قنبلة لكنى لم أشعر بأى ألم. وقمت واقفا فى تمام الصحة تلفتُّ فلم أجد لحبيبتى أثرا ونظرت إلى أعلى البرج فرأيت الشرطى يطل علينا وهو يغرق فى الضحك.

حلم ٤٧

فى الطريق لعب أمامى مجموعة من الصبية فشعرت أنهم يضمرون لى السوء. وعجبت لأنه لم يحصل بينى وبينهم ما يدعو إلى ذلك. وسرت فى حذر وأنا أتذكر بدهشة حالى عندما كنت فى سنهم.

ووجدت أمامى محلاً كبيراً يعد ليكون محلاً لبيع الحلوى كما فهمت من لافتته الكبيرة. وكان العمل على أشده فى إعداده فاقتربت منهم وسألتهم «هل ستقدمون ضمن الحلوى بقلاوة وكنافة» وكف العمال عن العمل واتجهوا بأنظارهم نحوى وعلى حين قهقهه الصبية وصفروا. وجاء

من أقصى المحل رجل بدا أنه صاحبه وسأل «هل حقا مازال يوجد أناس يحبون البقلاوة والكنافة؟» وسرت بين العمال همهمة وراح الصبية يرقصون ويصفرون ويكورون قبضات أيديهم فى وجهى . .

حلم ٤٨

أقبلت فوجدت فى الحجرة الحرافيش وسألت عن الغائب الوحيد فقالوا إنهم أرسلوا إلى الموسيقار سيد درويش فى طلب فرقة الباليه الجديدة ولا أدرى كيف فسد الجو بينى وبينهم وتجهمت وجوههم جميعاً. وهممت بمغادرة المكان ولكن فرقة الباليه وصلت وفى الحال عزفت الموسيقى ودار الرقص وخف التوتر بيننا واندمجنا فى الرقص والنغم بل وصفت القلوب وانهالت علينا النشوات وغمرنا الحب والمودة.

وإذا بنا ننضم إلى فريق الراقصين والراقصات ونشارك فى الأناشيد والأغانى وتعاهدنا دون كلام على أن نؤرخ تلك الليلة.

حلم ٤٩

قصدت المبنى الأبيض الأنيق فى صدر البهو جلست السيدة الجميلة. واجتمعنا إليها فراحت تتحدث عن شركة الإنتاج الفنى التى قررت

إنشاءها. ورحبنا بالشركة وصاحبتها ومضى كل منا يدلى برأيه فى الإنتاج والعمل. ولم نختلف إلا حول الأجور. فقد كان رأيها أن يحدد الأجر تبعا للاتفاق معها. وكان رأيى الذى أيده البعض أن يحدد الأجر بنسبة ثابتة من تكاليف الفيلم أو المسرحية. وأجلت المناقشة إلى جلسة أخرى. وقلت لزملائى إن الأخذ برأيها يجعلنا تحت رحمتها وإن النسبة توضح الأمر وتغلق الباب أمام الانتهازية.

ودعتنا السيدة مع آخرين للعشاء. وبعد العشاء أقيمت حفلة موسيقية. وما ندرى إلا والسيدة تتجرد من ثيابها وترقص عارية وبصورة غاية فى الإثارة.

واستقر رأيى بصفة نهائية. قررت أن أبتعد عن الشركة وصاحبتها.

حلم ٥٠

كنت أتطلع إلى امرأة فاتنة تسير فى الطريق فاقترب منى بجرأة وهمس فى أذنى إنها تحت أمرى إذا أمرت. كان برّاق العينين منفّرا ولكنى لم أصده. واتفقنا على مبلغ وأصرّ على أن يأخذ نصفه مقدما فأعطيته النصف. وضرب لى موعدا ولكن عند اللقاء كان بمفرده واعتذر بتوعك المرأة وكان على أتم استعداد لرد المقدم ولكنى صدقته وأبقيته معه. وكان يقابلنى فى حلى وترحالى ويطالبنى بالصبر. وخشيت أن تسىء هذه

المقابلات سمعتى فأخبرته أننى عدّلت عن رغبتى ولن أسترد المقدم ولكن عليه ألا يقابلنى. ولم يعد يقابلنى ولكنه كان يلوِّح بها فى أكثر الأماكن التى أذهب إليها.

وضقت به كما كرهته وقررت الانتقال إلى الإسكندرية. وفى محطة سيدى جابر رأيته واقفا وكأنه ينتظر.

حلم ٥١

وقف القطار دون وجود محطة فتساءلتْ صاحبتى عن السبب ولكنى لم أدر كيف أجيبها. وإذا بكتائب من الجيش تطوّقه وتقتحمه شاهرة أسلحتها وساقت إلى الخارج كثيرين من ضباط الجيش الذين كانوا بالقطار وعددا محدودا من المدنيين. وقُبض علىَّ فيمن قبض عليهم فتركت صاحبتى منزعجة خائفة. وجدنا أنفسنا فى صحراء. أمرنا الجنود المسلحون بخلع بدَلنا والبقاء بملابسنا الداخلية، ولكنهم وضعوا العسكريين فى ناحية والمدنيين فى ناحية. وأخذنا نتهامس أننا ضعنا وانتهى الأمر.

وجاء قائد الجنود ونادى علينا كل واحد باسمه.

وتساءل صوت منا.

ـ هل تقتلوننا بلا محاكمة؟

فأجاب القائد بصراحة :

ـ الأمر لايحتاج إلى محاكمة .

وتحرك القطار فتذكرتُ صاحبتي .

حلم ٥٢

دُعينا إلى اجتماع في حديقة الأزبكية . وهناك طرح علينا اقتراح بتكريم أستاذنا الجليل بمناسبة مرور مائة عام على مولده ولم يتحمس أحد ولكن لم يُبدِ أحد منا اعتراضه . واتُّفق على أن يتم التكريم في وزارة الخارجية التي قضَى فيها زهرة عمره وأنجز أكبر مآثره .

وفي اليوم الموعود ذهبت مبكرا لأتفقد المكان واتجهت من فوري إلى البهو المختار . كان أنيقا مهيبا كعادته ولكنه ازدان هذه المرة بوجود الفتيات الحسان اللائي عشقهن على مدى العمر .

جئن في زي موحد ليقمن بالخدمات المطلوبة وقد اكتسين برونق الشباب الريان . خفق قلبي بشدة وتحيرت بين نداءات الحسن وجاء قلبي بأقصى قدراته من الحب . وجاش صدري بالمعاني التي سألقيها في خطاب التكريم .

حلم ٥٣

سألت عن صديقى فقيل لى إن الموسيقار الشيخ زكريا أحمد يسهر فى بيته كل ليلة شاديا بألحانه حتى مطلع الفجر فقلت يا بخته ودُعيت لحضور سهرة فذهبت إلى الحجرة الواسعة المزخرفة جدرانها بالأرابيسك . . ورأيت الشيخ زكريا جالسا على أريكة محتضنا عوده وهو يغنى «هوه ده يخلص من الله» وفى حلقة جلست الأسرة نساء وأطفالا وبينهما رجل معلق من قدميه وتحت رأسه على مبعدة ذراع طست ملئ بمية النار .

ذهلت .

وضاعف من ذهولى أن الجميع كانوا يتابعون الغناء دون أدنى التفات إلى الرجل المعذب .

حلم ٥٤

فى الحجرة المغلقة دار الحوار بينى وبين المذيعة وكان الحديث عن الموسيقى المحلية والأجنبية . وعند بعض مراحل الحوار أقوم للبيانو وأعزف عليه بعض الألحان . وكلما مر وقت فُتح الباب ودخلت سيدة من أهل البيت لعلها أمى أو أخرى فى منزلتها تقدم مشروبا وتذهب ولكن وضح لنا أنها كانت تراقب خلوتنا بريبة .

وضقت ذرعا برقابتها فعزمت على تحدِّيها بصورة غير مسبوقة فما أن

سمعت صوت الباب وهو يفتح حتى اندفعت نحو المذيعة وضممتها إلى صدرى .

ولم أعد أبالى شيئا كما لم أجد غضاضة ما . ولما انتهيت من التحدى كانت المرأة قد اختفت من الحجرة بل ومن البيت كله .

حلم ٥٥

تحتدم المناقشة بين امرأة ورجل وأبنائهما الخمسة حول حق الأم التى تجاوزت الستين فى الحب والحياة .

وتخطت المناقشة الأسوار فصارت حديث الجيران .

يقول البعض إنه حب زائف من عجوز وشاب فى سن أبنائها طمعا فى المال الذى ورثته عن زوجها . ويقول البعض إنه ليس للإنسان إلا ما يقدر له من الحياة والحب خاصة حتى ولو أدى ذلك إلى دفع الثمن غاليا . وبدا الأمر فى نظر الشبان الخمسة مصيبة لها . وكان ما كان من قتل الأم البائسة ووقف الأبناء الخمسة فى قفص الاتهام . وتوزعت التهمة عليهم من التنفيذ للمشاركة للتخطيط .

وكان التحقيق فيها والمرافعات حامية وإذ كانت مفرداتها الأمومة والبر والشرف . والسمعة والتقاليد ومازلت أذكر وجوههم وأقوالهم كما مازلت أذكر المرحومة أيام كانت تتحدى العمر والألسنة وتسير متبرّجة تتبختر .

حلم ٥٦

غادرت البيت الكبير الذى ننتظر فيه كل رجل بذاته فلا يعرف أحد من الآخرين. وشعرت بشىء من الأمان بعد القلق.

غير أن شعور الأمان لم يدم طويلا، فخُيِّل إلىَّ أن آخرين يتبعوننى. ونظرت خلفى فرأيت عن بعد جماعة قادمة ملوِّحة بأيديها فى الهواء. فأوسعت الخطى حتى أخذت فى الجرى. ورأيت فى الطريق بيتا وكان هنا من يدعوننى فهرعت من فورى إليه ووجدت أهله وكأنهم عائدون من الخارج فهم ينظمون الأشياء ويزيلون عنها الغبار. ولم يدهش أحد لحضورى أمامهم فنظروا لوجهى ودودين فى وجوههم وأحاديثهم وابتسامتهم رجع معهم ونسيت فى تلك اللحظة الزاحفين ورائى.

حلم ٥٧

درت حول الحصن مرتين.. حصن حجرى نوافذه صغيرة كالثقوب، ومن كل نافذة يطل وجه أعرفه بل وأحبه.. البعض طال غيابه والآخر رحل عن دنيانا من أزمنة مختلفة، فنظرت بشوق وأسى وخيِّل إلىَّ أن كل وجه يسألنى من أعماقه أن أحرره، ونظرت إلى باب الحصن الحجرى بلا أمل، ثم ذهبت إلى دار السلطة وطلبت العون، وغادرتها مجبور الخاطر قابضا على عمود من الصلب، ورجعت إلى الحصن،

ولوّحت بالعامود فتهللت الوجوه واصطفت على الباب وضربت ضربة هائلة فتحطم وتهاوى، واختفت الوجوه من النوافذ وتعالى هتاف فرحة وسرور، ووقفت خافق القلب منتظرا لقاء الأحبة بلهفة وشوق.

حلم ٥٨

أخيرا جاء الترام الجديد وأصبح درة المواصلات فى حى العباسية وكنت من أول من استقلوه وجذبتنى إليه ألوانه الخضراء والبيضاء وزخارف جدرانه وفخامة مقاعده. كنت أقعد وأقف وأنا أتعجب من جماله، وأقول لنفسى هذا متحف جميل لا ترام. ولكنى لاحظت مع ورود الزمن أن سلوك ركابه دون مستوى جماله بكثير.

والحق أنى رأيت فعالا يندى لها الجبين خجلا. ويوم رأيت شابا من الخواجات ينقض على طفلة يريد أن يلتهمها ولكنى حلت بينه وبينها مذكّرا إياه بأنها طفلة. وقبل أن يشتبك معى صعدت سيدة جميلة فى أواسط العمر فهرع الشاب إليها وهو يهتف «Love you» وقالت السيدة إنها راجعة لتوّها من أوروبا، حيث شاركت فى الاحتفال بظهور سيرتها الذاتية وعرضت علينا نسخة فإذا على الغلاف صورة امرأة عارية تماماً!.

حلم ٥٩

إنه عجيب لطول قامته . . عجيب فى سلوكه، أما عن قامته فهى مثل مئذنة الزاوية، وأما عن سلوكه فإنه يعترض سبيل من يختار من أهل حارتنا، ويحنى قامته المديدة حتى يوازى وجهه وجهه، ويتفرس فى أساريره بإمعان، كأنما يبحث عن سر دفين، ويمضى بعد ذلك نحو المقصد حتى يختفى عند المنحنى . . وتلقاه الناس بدهشة واجمة وامتعاض شديد، بل إن أحدهم تبعه بعد ليكشف أمره، ولما طالت غيبته خرجت جماعة من الأهل والجيران للبحث والاطمئنان ولكنها رجعت مخيبة الرجاء .

عند ذاك جاء دور شيخ الحارة فنهض ليؤدى واجبه ورجع الرجل جريح الكبرياء، وانقلب الحادث إلى حكاية على كل لسان، وكثرت حوله الأفكار والظنون، ولكن بلا جدوى فطواه النسيان أو كاد .

وذات يوم كان شيخ الحارة يسامر أمام الزاوية إذ شعر بوجود يحل فى وجوده، ورأى أمره العجيب بل ولمح قبسا من سره الذى حيّر الناس، وقرر فى الحال القبض عليه، وأذاع ما عرفه من سره على الملأ .

وهم بالقيام ولكن خانته قواه جميعا، فلم يستطع أن يتحرك ولم يستطع أن ينطق .

حلم ٦٠

دققت جرس الباب ففتح عن ثلاث فتيات يقينا أنى لا أعرفهن لكننى شعرت بأننى لا أراهن لأول مرة. سألت عن السيدة صاحبة الشقة فأجبن بأنها مازالت فى الحج ولم يعرفن بعد ميعاد عودتها. وسرن بى إلى حجرات الشقة. وعند فتح كل باب أرى جماعة حول مائدة مستديرة غارقين فى مناقشة حادة ولكنى لم أعرف أى موضوع يناقشون من اختلاط الأصوات وتداخلها. ولم أرغب فى الدخول فى أى غرفة مفضلا انتظار السيدة صاحبة الشقة. ولفتت نظرى إحدى الفتيات بأن السيدة سوف تتأخر بضعة أيام ومن يأسى أجبتها ـ بعد أن اشتركت فى المناقشات دون جدوى ـ أننى أفضل انتظار عودة السيدة.

حلم ٦١

وصلتنى دعوة عشاء فى بيت قريب عزيز. ولما اقتربت من الباب رأيت أفواجا من المدعوين يدخلون. فأدركت أن الدعوة عامة. ورأيت بين القادمين نخبة من جيل أساتذة وأخرى من جيل الزملاء. وتبادلنا التحية وبعض الكلام كان مما أجمعوا عليه أنهم يقيمون الآن فى قرية كرستوفر وقالوا الكثير عن جمالها وتفوقها على جميع القرى السياحية دخلنا وتفرقنا بين الموائد. وكانت جلستى أمام مائدة صغيرة عارية من كل شيء فلا مفرش ولا طبق ولا أدوات طعام وقبل أن أفيق من دهشتى

رأيت شكوكو قادما نحوى قابضا على فخذة خروف محمرة. وسلمها لى يدا بيد وذهب وهو يضحك. صعقت واستأت ولكنى لم أر بُدا من قطع اللحم بأصابعى لأتناول طعامى غير أننى كنت أفكر طيلة الوقت فى كرستوفر. . .

حلم ٦٢

أخيرا عثرت على الصورة القديمة العزيزة بين الأشياء القديمة. ولكن فرحتى لم تتم إذ سرعان ما تبين لى أن الصورة تهرأت بمرور الزمن عليها وطمست ملامح الأعزاء فلم يبق منها بقية تذكر.

وبقدرة قادر وجدت نفسى فى بهو مصلحة حكومية وبيدى ملف خدمة موظف يتتبع خطاى ويطالب بالإنصاف. وأدركت بخبرتى أن الموضوع من اختصاص إدارة المستخدمين.

وبحثت فلم أجد لها أثرا وفيما أمر أمام حجرة المخازن فتح الباب وخرج منه زميل توفاه الله منذ شهر. خطف الملف من يدى ورجع الى المخازن وهو يؤكد أن الموضوع من اختصاصه. وأنسانى مظهره المهمة التى كانت تشغلنى.

حلم ٦٣

هذه أرض خضراء يحيط بها سور متوسط الارتفاع لكنه كاف لإخفاء مايجرى داخله عمن فى الخارج، وتنطلق من وسطها مسلة طويلة فى رأسها علم، أما سطحها فيمرح بالشباب والحركة. خلت بادئ الأمر أننى فى ناد رياضى - ولكن بعد أن أمعنت البصر غلب على ظنى أننى فى سيرك، فهنا جماعة تسير على أربع. وهنا فريق يتبادل أفراده الصياح والركل. وفريق آخر يتعاقب الحركة... الشتائم، أما البقية من الشباب فتشدو بألحان لم يسمع مثلها. وأردت أن أزداد علما فوجدتنى خارج السور فى مدينة كبيرة يشقها شارع عملاق تتكتل الجماهير على جانبيه خارج السور وهى تهتف متطلعة إلى العلم فى رأس المسلة. وأخيرا فتح الباب الكبير. وتهادى منه الموكب، عربة إثر عربة. وفى كل عربة شاب يجلس جلسة ملوكية، ينظر إلى الناس من عل. ويرد تحياتهم باستعلاء واستكبار.

حلم ٦٤

من شدة الرعب تسمرت قدماى فى الأرض فعلى بعد ذراع منى شبت ثلاثة كلاب ضخمة متوحشة تريد أن تنقض علىّ لتفتك بى لولا أن قبضت على أذيالها امرأة باستماتة.

وإلى اليمين وقفت كلبة فى ريعان الشباب، آية فى غزارة الشعر وبياضه

ونعومته وكانت تشاهد مايحدث فى قلق تجلى فى اهتزازات ذيلها القصير المقصوص.

وارتفع نباح الكلاب الثلاثة وتتابع كالرعد واشتعلت فى أعينها الرغبة المتأججة فى الفتك بى ولما تعذر عليها الوصول إلىّ استدارت فجأة ووثبت على المرأة وعند ذاك اقتلع الرعب قلبى وارتمت علىَّ الكلاب. أما الكلبة الجميلة فتطلعت لى مدة وترددت لحظة عابرة ثم ألقت بنفسها فى المعركة دون مبالاة بالعواقب.

حلم ٦٥

انقضى العام الدراسى وأعلن عن يوم الامتحان. ولم نكن فتحنا كتابا ولا حفظنا جملة توجب التفكير فيما ينبغى عمله. وثمة قلة كانت ماتزال تحتفظ بشىء من الاحترام لما هو معقول فقررت الامتناع عن حضور الامتحان. أما الأخرى كانت مولعة بالعبث واللامعقول فانتهزت الفرصة المتاحة وعزمت على حضور الامتحان. وفى الصباح الموعود انتظمنا الصفوف ولبسنا أقنعة الجدية والاهتمام. وإذا برئيس اللجنة يقوم ويقول بصوت جهورى إنه سيوزع علينا ورقتين إحداهما تحوى الأسئلة والأخرى تحوى الإجابات الصحيحة. وذهبنا حقا فلم نكن نتصور أن بين أساتذتنا من يفوقنا فى حب العبث واللا معقول.

حلم ٦٦

تم التفاهم بيني وبين المالك ودعاني الرجل لمعاينة ما تم التفاهم عليه أراني شقة ممتازة وزوجته الحسناء وابنها وهو طفل في الثالثة. وطابت نفسي بما رأت وتحدد موعد الساعة التاسعة من صباح اليوم الثاني للتسليم والتسلم. لكني في الحقيقة لم أستطع صبرا.

ودفعتني قوة لا تقاوم للذهاب إلى الشقة. وأن الذي فتح لي الباب هو المالك نفسه. ولما رآني ثار غضبه وصفق الباب في وجهي بغضب ارتجت له الجدران وبت ليلة مسهدة أتساءل بقلق بالغ عن الصفقة والمصير.

حلم ٦٧

بناء كبير ستجده. في الأصل كان مبنى الوزارة التي كنت موظفا بها ولما رأيت الشباب يعود إليها - راودتني نفسي على ارتيادها. في الداخل قابلت نفرا من الزملاء القدامى فانشرح صدري للقائهم وسرنا من حجرة إلى حجرة ومن ذكرى إلى ذكرى حتى بعثنا الماضي من مرقده. ومررنا بسلم واسع عجيب فصعدت من فوري إلى الطابق الثاني هناك رأيت شبابا كثيرين كلما رآني أحدهم تجهم وجهه وألقى عليّ نظرة مستنكرة انتفض قلبي وشعرت برغبة في التبول. وبحثت هنا وهناك حتى استقرت عيناي على لافتة ترشد إلى دورة مياه في ممر بين الحجرات فهرعت إليه ولكني

وجدت عمالا عاكفين على إنجاز مشروع لم يتم تنفيذه لا يصلح للاستعمال رجعت من حيث أتيت. وسرعان ما اكتشفت بأنه لا سبيل إلى الفرج إلا بالعودة الى الطريق.

حلم ٦٨

ما أجمل هذا المكان. إن سماءه وأرضه وما بينهما تتألق بلون الورد الأبيض. وجوه آية فى النقاء والصفاء. أما معجزته الحقيقية فهى أنه جمع أصدقاء العمر الأحياء منهم والأموات دون أن يثير ذلك دهشة أحد. فلا نحن سألناهم عما وجدوا فى العالم الآخر ولاهم سألونا عما حدث فى الدنيا عقب رحيلهم.

ولكنا أنفسنا جميعا فى اللهو متمنين أن تدوم الحال غير أن الحال لم تدم إذ هبطت من السماء سحابة سوداء، حتى ساد الظلام وفرق بيننا وانهمر مطر مثل الشلالات وتتابع البرق والرعد دون هدنة حتى بلغت القلوب الحناجر.

وهنا تسلل لأذنى أصوات بعض الأصدقاء.

قال الأول «إنها النهاية».

وقال الثانى «إنى لمحت عند الأفق قبسا من الفرج».

وقال الثالث «مهما يكن من الأمر فلا مفر من الحساب».

حلم ٦٩

هذه غابة تتوسطها هضبة هرمية الشكل. يصعد إليها من خلال ممرات حجرية مدرجة مزينة بصفوف النخيل وأحواض الزهور وجواسق العاشقين. خلوت إلى صاحبتى.

وسبحنا معا فى مناجاة غيبت عن وعينا الوجود. وبغتة انتشرت صاحبتى واقفة وفى غمضة عين غادرت الجوسق. وقمت لألحق بها وأطمئن عليها فاعترضنى صوت كالرعد ينطلق من مكبر صوت ويحذر الناس من وجود قنبلة زمنية ويدعوهم إلى مغادرة الهضبة بلا إبطاء ولا تردد. واندفع الناس نحو الممرات الحجرية وأنا أتلفت، وجمعنا رجال الأمن فى موضع على بعد آمن. وبحثت عن صاحبتى فلم أعثر لها على أثر ترى أين اختفت؟ وهل ثمة علاقة بينها وبين الجريمة؟ وألا يجرنى ذلك إلى الاتهام رغم براءتى؟

وسمعت أقرب الواقفين إلىَّ وهو يقول لصاحبته إن قلبه يحدثه بأن المسألة ليست أكثر من بلاغ كاذب. وسألت الله أن يصدق حدس الرجل ولكنى لبثت ممزقا من التفكير فى صاحبتى وتوقع الانفجار!

حلم ٧٠

نادانى الشوق لرؤية الأحباب فتوجهت صوب الحى العتيق. وكالعادة قطعت الطريق مشيا على الأقدام حتى بدا لى البيت القديم وذكرياته. ولم

أضيع وقتا فأخذت فى الصعود نحو الطابق الثالث والأخير. ولكن دهمنى إرهاق غير يسير عند منتصف السلم جعلنى أفكر فى تأجيل الرحلة لولا أن طبعى يأبى التراجع وبجهد جهيد واصلت الصعود حتى بلغت البسطة الثالثة. ومن موقفى الجديد لاح لى باب الشقة غارقا فى الصمت والسكون، فعلمت أنه لم يبق من الصعود سوى عشر درجات هن ختام السلم لكنى لم أر درجة واحدة، ووجدت مكانها هوة عميقة فخفق قلبى خوفا على آل البيت.

ومع أن الوصول بات متعذرا إلا أنى لم ألتفت إلى الوراء، ولم أفكر فى التراجع، بل ولم أفقد الأمل. وجعلت ألصق بصرى بالباب الغارق فى الصمت والسكون وأنا أنادى، وأنادى، وأنادى من الأعماق.

حلم ٧١

كان أجمل ما فى عهد شبابنا صديق نادر المثال. آية فى خفة الروح وحلاوة النكتة ورشاقة القفشة وبراعة القافية وثراء الحكايات، والنوادر وإلى ذلك كله لم يكن يضن علينا عند الطلب بالغناء والرقص وسائر فنون اللهو. هكذا أمتعنا دهرا حتى وقع عليه الاختيار لشغل وظيفة مرموقة عرفت فى بلادنا بالجلال والوقار. وتوجسنا خيفة أو سرعان ما تحقق تخوفنا فقال لنا وكأنه يرد عنا إنه قرر تغيير حياته من الألف إلى الياء ولم يراجعه أحد وسلمنا أمرنا لله.

وكان إذا قابلنا فى مناسبة حيّانا بوقار شديد يعمق شعورنا بالغربة والأسى.

ووهنت العلاقة الحميمة وقاربت التلاشى، ولم نعد نسمع عنه إلا فى نشرة التنقلات والترقيات. وأخذنا نتناسى حتى نسيناه أو كدنا. وباعد الزمن بيننا وبينه حتى شاء القدر أن نلتقى على غير ميعاد ذلك عندما احتفلت البلاد بعيدها القومى الجديد. خرجنا للمشاركة والفرحة.

وعزفت الموسيقى النحاسية ودقت الطبول. وتقدمت فرقة من الجيش تبعتها فرقة من الشرطة تبعتها سيارات الصفوة وهنا طالعنا صديقنا القديم ولكن على حال لم تجئ لنا فى خاطر. رأيناه يمتطى حمارا. ويتجلى التناقض صارخا بين تفاهة موكبه وفخامة ملبسه. وكان يثير الضحك أينما ظهر. لكنه والحق يقال لم يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا حاد شعرة عن وقاره.

حلم ٧٢

امتلأ البيت القديم بالعباسية بالطيور المهاجرة من الإخوة والأخوات فى اليوم المتفق عليه لزيارة الوالدة. وطلبوا منى إعداد أكلة سمك من سمَّاك العباسية المشهور. ذهبت من فورى إلى المطعم وطلبت الطلب ووجدت جميع الموائد مشغولة إلا المائدة التى تلى الباب مباشرة فذهبت إليها وجلست فى طرفها أنتظر. وجاءت سيدة فى الستين مصطحبه معها

فتاة فى العشرين وجلستا إلى المائدة. وجاء النادل بالأطباق والطواجن. وعلى خلاف المعهود دعتنى السيدة لمشاركتهما فى الطعام. وبخلاف المتوقع لبيت الدعوة صامتا وبدأت فى تناول الطعام. وسرعان ما جاء النادل باللفافة المعدة للمنزل فتناولتها وانسحبت من المائدة دون اعتذار أو شكر وخرجت من المطعم فرأيت على بعد ذراع صديقى المرحوم (ع. ش) وسررت برؤياه سرورا كبيرا. وعلى سبيل المجاملة قدمت له اللفافة لكنه أخذها بلهفة ومضى دون أن ينبس بكلمة إلى باب مفتوح فدخله وأغلقه. دهشت بتصرفه ولكنى لم أجد مناصا من تجديد الطلب فرجعت إلى المطعم وجددت الطلب. وكان النادل يحمل الحلوى إلى السيدة والفتاة. ودعتنى للمشاركة فذهبت دون تردد. وهنا قالت السيدة إنها ترغب فى الذهاب إلى شارع بين السرايات ولكنها لاتدرى كيف السبيل إليه. فتطوعت بتوصيلها وسار ثلاثتنا فى شارع العباسية. وتم التعارف بالشكر وتنوع الحديث بنا حتى أنى مررت بشارع بين السرايات دون أن أنتبه لذلك. كما نسيت الطعام الذى يجهز لى فى المطعم وكما نسيت المنتظرين والمنتظرات فى البيت القديم بالعباسية.

حلم ٧٣

وجدتنى فى البيت القديم بالعباسية. ويبدو أننى كنت متكدر المزاج فلم يسلم من نقدى شىء. مثل طلاء الجدران وخشب الأرضية والأثاث حتى جاءنى صوت أمى من أقصى الشقة وهو يقول

بنبرة باسمة لطيفة إنه آن الأوان كى أبحث بنفسى عن شقة جديدة تعجبنى . . وانتقلت إلى مكان وزمان آخرين فوجدتنى فى بهو متعدد الحجرات والأشخاص . يوحى منظره بأنه مصلحة حكومية . وأكد ذلك مجىء زميلى المرحوم (ح . أ) ليخبرنى بأن الوزير أرسل فى طلبى . وذهبت من فورى إلى حجرة الوزير . واستأذنا ودخلت . رأيت الوزير على غير عادته من البشاشة . وقال لى إنه حلم بنقدى للثورة وزعيمها فساءه ذلك فقلت له إنى أعتبر - نفسى متيَّما بمبادئ الثورة ولم أكن من رافضيها غير أنى تمنيت دائما لها الكمال وتجنب العثرات والنكسات وانتقلت إلى مكان وزمان آخرين فوجدتنى صبيا يتجول فى ميدان بيت القاضى . وجاءنى صديق فى مثل سنى يدعونى لحضور حفل زفاف شقيقه الأكبر . وقال إن شقيقة دعا سعد زغلول ليشرف الفرح ويباركه وأنه قبل الدعوة ووعد بالحضور . فدهشت دهشة كبرى وقلت له بأن سعد زغلول هو زعيم الأمة فضلا عن أنه اليوم رئيس وزرائها .

وأنت لستم من أقربائه ولا من زملائه فى جهاده . فقال إن سعد هو زعيم الأمة حقا ويخص البسطاء بوافر الحب وإننى سوف أرى .

وفى الميعاد ذهبت إلى الحفل فى درب قرمز ومضى بى صديقى إلى حجرة فرأيت فى الصدر سعد زغلول فى بدلة التشريفة يجلس معه ويتبسط معهما فى الحديث ويشاركهما فى الضحك . بهرت بما رأيت انبهارا استقر فى أعماقى . .

حلم ٧٤

هذا ملعب كبير حل محل بيوت الجيران فى الجانب المقابل من الطريق يملأه الجنود البريطانيون، فيغنون ويرقصون. . ونحن نتابعهم بدهشة وقلق، ثم ينتشرون فى شارعنا والشوارع المتفرعة منه.

وتشاورنا فى الأمر واستقر رأينا على الانتقال إلى حى آخر، ولما لم نجد بيتًا مستقلاً رضينا بشقة فى عمارة ضخمة ولم نضن بجهد حتى جعلناها صالحة للمعيشة؛ وما كدنا نركن إلى شىء من الراحة حتى سمعنا صوت خرفشة مما يصدر عادة عن الفئران فتعكر صفو راحتنا. . وقبل أن نفكر فى شىء ينبغى عمله سمعنا طرقات الباب الخارجى. ولما فتحت الباب رأيت كثرة من الرجال المسلحين بالعصى، قالوا إنهم سكان العمارة يطاردون لصًا يظنون أنه تسلل إلى شقتنا واقتحموا الشقة وتفرقوا فى الحجرات وأحدثوا جلبة مزعجة؛ ولكنهم أعلنوا أنهم لم يعثروا على اللص. وغادروا المكان بعد أن قلبوه رأسًا على عقب. . بل واكتشفنا اختفاء اللص المتخفى، وبينما نحن نتبادل النظر فى غيظ وضيق إذ سمعنا من جديد صوت الخرفشة. . فثرت غضبًا وقلت ليكن فأرًا أو لصًا أو عفريتًا فلن أفتح الباب للطارق.

حلم ٧٥

أمى ترحب بجارة عزيزة وكريمتها الحسناء فى حجرة المعيشة بالدور الثالث فى بيتنا القديم. ودعيت للجلوس معهن ثقة فى الألفة بين الأسرتين.

وفى أثناء الحوار استرقت إلى الفتاة نظرة واسترقت إلىّ نظرة دون أن يغيب هذا عن أم الفتاة، فلما ذهبت فى الابتعاد عن الغرفة همست لنا الجارة أن انزلا إذا شئتما إلى الدور التحتانى الآن كعادة من أهل البيت، وتلقيت الدعوة بذهول وبفرح شامل. وما أن دخلنا الدور التحتانى حتى جذبتها إلى صدرى. ولكنى ألم أخط الخطوة التالية لسماع ضجة غريبة واقتحم المكان نساء ورجال وشباب، وتفرقوا فى الحجرات؛ ثم جاء رجل من رجال الأمن ووقف عند الباب زاعمًا الحفاظ على القانون وكدت أفقد عقلى من الذهول وضاعف من ذهولى أنى رأيتهم يغنون فى حجرة، كما رأيتهم يرقصون فى حجرة أخرى. ونظرت إلى فتاتى مستغيثًا بها فوجدتها هادئة باسمة. . وعند ذلك قررت الهرب، غير أنى رأيت رجل الأمن عند الباب فتسمرت فى وضعى فريسة للذهول وخيبة الأمل.

حلم ٧٦

هذه شجرة مورقة يجلس تحتها صديق الشباب وشهيد الوطنية. . وعلى الرغم من مرور عشرات السنين على رحيله فإنه بدا أنيقا فى صحة وعافية.

فانشرح صدرى لمرآه وهرعت إليه ولكنه أوقفنى بإشارة من عصا بيده، ذكرته بعهد الصداقة فلم يعبأ بكلامى وقال إنه لم يعد يستطيع صبرًا مع تل القمامة.

قال ذلك وألقى عصاه ثم ذهب، التقطت العصا وأنا حزين ولكنها نفخت فى روحًا جديدًا فانطلقت من فورى إلى تل القمامة وانهلت ضربًا على أطرافه وكل ضربة أحدثت شقًا، ومن كل شق يخرج رجال ونساء ليسوا على شاكلة جامعى القمامة ولكنهم آية فى النظافة والوجاهة والفخامة وكلما لمح أحدهم العصا بيدى فر يركبه الفزع عند ذلك رسخ يقين بأن الشمس ستشرق غدًا على أرض خضراء وجو نقى.

حلم ٧٧

انعطفت إلى الشارع الجانبى الهادئ حاملاً حقيبتى بيدى، وسرعان ما تلقيت من الطريق سيلاً من الذكريات والأشواق المحفوفة بالقلق والخوف.

وتوقعت عتابا على غيبتى غير القصيرة واستعددت له بالمعاذير المناسبة.

وبلغت مدخل العمارة فلاح فى الشقة الأرضية على بُعد أربع درجات من السلم. وضغطت على الجرس متطلعًا بوجه باسم. وفتحت الشراعة عن وجه رجل غريب فى جلباب منزلى يوحى بأنه صاحب المكان وفجأة هوى وجدانى الملتهب إلى قاعة بحيرة جليدية وفكرت بسرعة فى اختلاق

كذبة تنتشلنى من ورطتى فادعيت أنى تهت وأبحث عن سكن فلان افندى المدرس وأننى ضللت العمارة.

فقال الرجل وهو يتفرس فى وجهى بارتياب وتحفز :

– هذه شقته وهو فى الداخل فمن حضرتك لأبلغه؟

وأدركت أننى انكشفت وخرست مبهوتًا فارتفع صوت الرجل وهو يقول:

– ما أنت إلا كذاب وفاسق مثل جميع من جاءونى قبلك.

ولم أطق المزيد فهرولت نازلاً وكدت أفقد توازنى فسقطت الحقيبة من يدى وانفتحت فظهر داخلها زجاجة نبيذ وكيلو كباب فى طبق من ورق، ولكنى لم أكن أفكر إلا فى أمر واحد وهو أن أختفى فى سرعة البرق.

حلم ٧٨

يالها من جنازة كبيرة. لا أدرى كيف انضممت إليها. فإنى لا أعرف أحدا من المشيعين. بل لا أعرف الميت. والأغرب أن الجنازة سلكت طريقا لم تسلكه الجنازات من قبل. فقد اتجهت نحو شبكة من قضبان السكة الحديد. وعبرنا بها إلى الخلاء حيث توقفت عن السير طلبا للراحة. على حين واصلت القطارات سيرها نحو الشمال ونحو الجنوب وعلا جدل بين

الملتفين حول النعش. فريق يرى أن يحمله إلى الجنوب. وفريق يريد أن يحمله إلى الشمال. وكلا الفريقين يزعم بأنه ينفذ وصية الراحل. وصاح أحد العارفين يذكر القوم بأن الراحل ولى من أولياء الله الصالحين. وأنه لن يسمح أحد بحمله إلى جهة لا يرضاها. راعينا التحريم على قوله. وجرب فريق الجنوب حظه ولكنه عجز عن حمل النعش وجرب فريق الشمال حظه أيضا فمنى أيضا بالفشل، عند ذاك أدرك الجميع أن ولى الله يأبى أن يغادر الموقع الذى هو فيه وسط بين الجنوب والشمال.

حلم ٧٩

جلست فى شرفة الفندق الصغير المطلة على البحر. غاب عنى المنظر الجميل لشدة استغراقى فى انتظار فتاتى. ولما طال الانتظار جاءنى مدير الفندق وهو أيضاً صديق صباى واقترح علىّ أن أعالج حالتى بالمشى. ذهبت إلى الشاطىء. ورحت أسير ذهابا وإيابا. وإذا بى ألمح فتاتى فى سباق سباحة مع نفر من الشبان أحدهم مضى بها إلى الصخرة ليستريحا بعيدا عن الأعين، تلقيت طعنة فى القلب وغرقت فى إحباط لا قرار له وأدركنى المدير الصديق وقال:

- هذا هو حال الدنيا فلا تستسلم للحزن.

فقلت له:

- أنت تعلم أننى عرفت أشياء كثيرة ولكنى لم أتعلم السباحة.

وأخذنى إلى ركن هادئ فى حديقة الفندق. وبقيت ساعة فى غم وهم. وإذا بمفاجأة غير متوقعة بحال رأيت فتاتى تقبل نحوى متهللة الوجه بالسعادة. وتوثبت لإفراغ شحنة من غضبى. وإذا بى أتلقى مفاجأة جديدة. غير متوقعة وغير مفهومة وتستعصى على أى إدراك. فقد غمرتنى بغتة فرحة شاملة مسحت عن صدرى الأحزان كلها وكأن ما كان لم يحدث، وهكذا تقابلنا كما نتقابل كل مرة. وذهبنا للتجول فى المدينة كالعادة. ولما مررنا بمحل بيع الهدايا دخلنا دون تردد واتجهنا إلى القسم المخصص لهدايا الخطوبة والأفراح. وقلبت فتاتى عينها فى الهدايا التى لاتحصى وقالت:

- ليس لدينا من الوقت مايكفى.

فقلت ببراءة:

- لدينا وقت يكفينا للأبد.

حلم ٨٠

جمعتنا الحجرة القديمة أنا وأمى وأخواتى الأربع وما أن أغلق الباب علينا حتى تصاعدت الشكوى من الزمان والناس، فأقبلت أمى علىّ قلقة وأقسمت بكل يمين أنه ما من قول قالته أو فعل فعلته إلا بدافع الحب الخالص فتساءلت أصوات: إذًا كيف حدث ما حدث؟

فقالت أمى بعتاب: عليكم أن تحاسبوا أنفسكم أيضًا وألا تقولوا معى إنه المقَّدر والمكتوب.

حلم ٨١

أخيرًا ذهبت إلى القصر ورجوت البواب أن يبلغ الهانم أن الفائز بجائزتها حاضر ليقدم الشكر بنفسه إذا تنازلت وسمحت بذلك ورجع الرجل بعد قليل وتقدمنى إلى بهو راعنى جماله وضخامته ولم تلبث أن عزفت الموسيقى لحن الإقبال فأقبلتْ الهانم تتهادى فى أبعادها الفتَّانة فقمت لألقى خطاب الشكر ولكنها بحركة رشيقة من يديها كشفت عن ثدييها وأخذت من بينهما مسدسًا أنيقًا وصوبته نحوى فنسيت الخطاب. . . وأخذت أنصهر من قبل أن تلمس الهانم زناد المسدس.

حلم ٨٢

أسعدنى جدا أن يتولى شئون المؤسسة المدير الجديد على الرغم من أننى لم أشارك فى انتخابه. ولكن كلما أثنيت عليه تصدى لى إخوان بالسخرية فسرت حائرا بين الإعجاب من ناحية والسخرية من ناحية أخرى ولكنى رفضت اليأس رفضا تاما.

حلم ٨٣

رأيت الكارتة مقبلة حاملة فاتنة درب ترمز ويجرها جواد مجنح اتخذت مجلسى فيما وراءها وفرد الجواد جناحيه فابتدت ترتفع حتى علون الأسطح والمآذن وفى ثوان وصلنا قمة الهرم الأكبر وأخذنا فى عبوره على ارتفاع ذراع فجاذفت وقفزت إلى قمته وعيناى لا تتحولان عن الفاتنة وهى تعلو وتصعد والليل يهبط والظلام يسود حتى استقرت كوكبا مضيئا .

حلم ٨٤

رأيتنى فى شارع الحب كما اعتدت أن أسميه فى الشباب الأمل . ورأيتنى أهيم بين القصور والحدائق وعبير الزهور . ولكن أين قصر معبودتى؟ . لم يبق منه أثر . وحل محله جامع جليل الأبعاد . رائع المعمار . ذو مئذنة هى غاية فى الطول والرشاقة . ودهشت . وبينما أنا غارق فى دهشتى انطلق الأذان داعيا إلى صلاة المغرب . دون تردد دخلت الجامع . وصليت مع المصلين ولما ختمت الصلاة تباطأت كأنما لا أرغب فى مغادرة المكان . لذلك كنت آخر الراحلين إلى الباب . وهناك اكتشفت أن حذائى قد فقد . وأن علىّ أن أجد لنفسى مخرجا .

حلم ٨٥

هذه محطة ترام وأنا حائر بين أبعادها لانتظار مجيء ترام ما ولكن ترقبى لسطوع القمر فى النافذة المطلة على المحطة حيث أختلس نظرة بعد نظرة. وأتمادى فى الطلب وما أكثر الأصدقاء الذين يسألوننى. حتى متى تبقى وحشتى. ولكن أنا فى رحلة لا مفر منها كأنها قضاء وقدر والحق إنها رحلة شاقة مرهقة وأطول مما تصورت وعند العودة لم يتبين لى إلا قفص مربع هو النافذة ووجدتها بموضعها ولكنها بدت واجمة لا تستجيب ولا تجيب وكما كنت بالأمس ووقفت تحت النافذة منتظرا غير عابئ بالمارة وأخيرا هبط علىّ صوت حديث كالهمس يتخلله ضحك مكتوم.

ثم سمعت صوتا يتساءل:

- ما حكاية الرجل الذى يقف تحت النافذة؟

فأجابه صوت ضحكتها:

- إنه يبكى عن ذكرى حبيب ومنزل.

حلم ٨٦

كلفت بحمل رسالة إلى المرحوم الدكتور حسين فوزى، فقلت له إن معى عرضا لإعادته فى الخدمة مع زيادة ملموسة فى الراتب.

وتخصيص حجرة فاخرة لمقامك. ضحك الدكتور وقال إنه لا يهمه الراتب ولا الحجرة، ولكن يهمه احترام فكره وكرامته.

ورجعت وفى يقينى أن مهمتى قد فشلت.

حلم ٨٧

فى الصباح الباكر اكتشفت الجريمة الوحشية. وما لبثت وحشيتها أن صارت حكاية على كل لسان. ولكنى لم أجد موضعا للاختباء إذ إن المكان كله يتقاسمه رجال الشرطة وطبيبات المرض النفسى. وأصبحت فريسة للقلق حتى استدعتنى إلى حجرتها كبيرة الطبيبات. وقالت لى الأكثرية هنا يفسرون وحشية هذه الجريمة بالقسوة الكامنة فى طبيعة القاتل. أما أنا فأفسرها بقلة خبرته وجهله للأصول العلمية الحديثة لفن القتل. لذلك قررت إلحاقه بالمعهد العصرى للجريمة. والله ولى التوفيق!

حلم ٨٨

فى قريتنا كل فرد ينتظر رسالة قد تقرر مصيره. وذات يوم تلقيت رسالتى فقرأت فيها أن الحكم صدر بإعدامى شنقا. وذاع الخبر كعادة تقاليدنا. فاجتمع أعضاء نادى القرية وقرروا الاحتفال بالأمر فى حينه أما

فى بيتى حيث أعيش مع أمى وإخوتى وأخواتى فقد انشرحت الصدور وعم السرور. وفى اليوم المنتظر دقت فى النادى الطبول. وخرجت أنا من بيتى فى أحسن زينة محاطا بأفراد أسرتى، ولكن أمى شذت عن حالنا فدمعت عيناها وتمنت لو كان العمر امتد بأبى حتى يشهد بنفسه هذا اليوم السعيد.

حلم ٨٩

من موقفى فى الحديقة رأيت سيدة فى الستين مقبلة نحوى متجهمة الوجه وقالت بنبرة غاضبة:

- بسببك خسرت الجائزة.

وتذكرت السيدة ووجهها الحزين ولكنى لم أفهم لقولها معنى واستمرت تقول:

- اللجنة استبعدت قصتى بحجة أنها نسخة من قصتك المطبوعة منذ أربعين سنة.

وضح كل شىء وعرفت أن الحظ السيئ مازال يتعقب المرأة وواصلت حديثها.

- أقسمت لهم أن قصتى لايجوز أن تتهم بسبب بسيط وهو أنها قصة حياتى.

فقلت بانفعال:

- صدقت. أنا الذى اقتبست قصتى من واقع حياتك الذى شاركت فيه أسوأ مشاركة.

فقالت وهى تضحك بسخرية:

- فرصة أن أكون ضحية لك فى واقع الحياة لا فى الخيال. .

حلم ٩٠

تم بناء البيت فكان تحفة معمارية جاء إليها الناس من جميع الأطراف وكل يأمل امتلاكها. . وكثرت المساومات واشتد الجدل حتى شق الجموع عملاق وهو يقول بصوت جهير: إن القوة هى الحل. ووجم الناس إلا واحدا تصدى له فقامت بينهما معركة حامية حتى تمكن العملاق من توجيه ضربة إلى رأس خصمه فهوى فاقد الوعى ثم اقتحم العملاق البيت وأغلق البيت بإحكام. وتمر الساعات فلا يفتح فى البيت منفذ إيفاء للانتقام أما الواقفون فى الخارج فلم يأتوا بحركة مجدية وكأنهم فى الوقت ذاته لم يتفرقوا.

حلم ٩١

فى البدء كانت العربة. كنت أدفعها أمامى بقوة ومرح. وذات يوم وجدت على سطح العربة طفلة فازددت نشاطا ومرحا وتتابع القادمون

حتى غطوا السطح فاستنفدوا قوتى ومرحى. وشعر الراكبون بمعاناتى فعزمت على ترك العربة حالما تسنح فرصة طيبة. وبمرور الأيام خلا السطح، رجع إلى أصله. أما أنا فلم أرجع بل ازددت ضعفا وأخيراً ركنت العربة ورقدت إلى جانبها».

حلم ٩٢

وجدت نفسى فى بهو جميل، وبين يدىّ وعاء ذهبى ملىء بما لذ وطاب.

فذكرنى هذا بسمار الليالى من أصدقاء العمر الراحلين، وإذا بى أراهم مقبلين تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة. فتبادلنا السلام وأثنوا على الوعاء وما فيه. غير أن سعادتى انطفأت فجأة وصارحتهم بأننى لن أستطيع مشاركتهم حيث منعنى الأطباء من التدخين منعا باتا، وبدت الدهشة على وجوههم ثم ركزوا أبصارهم فى وجهى وتساءلوا ساخرين:

- أمازلت تخاف من الموت؟!

حلم ٩٣

على سطح بيت قريب رأيت أثاثا يرتب وينمق فسألت قيل لى إن صاحب ذلك البيت حول بيته إلى معهد ثقافى بالمجان قانعا بالمعيشة فوق

السطح فأعجبت به وأكبرته وعزمت على حضور بعض دروسه ووجدت المكان غاصا بالبشر وقال الرجل إن درس اليوم سيكون عن الثور الذى يحمل على قرنه الأرض وصدمنى قوله بشدة ففرت منى ضحكة ساخرة فاتجهت نحوى الوجوه شاخصة بالغضب. أما الرجل فرمانى بنظرة عابسة وهو يشير صامتا إلى باب الخروج.

حلم ٩٤

خمسة انقضوا علىّ شاهرين المطاوى فسلبوا نقودى وفروا بسرعة مذهلة ولكن بعض ملامحهم انطبعت على ذاكرتى ومنذ وقوع هذا الحادث تجنبت المشى منفردا فى الشوارع الجانبية غير أن الشارع الرئيسى لم يكن يخلو من متاعب. فذات يوم وجدت المرور متوقفا والناس متكدسين على الجانبين وما لبث أن جاء طابور من سيارات عديدة ولما مر أمام ناظرى مؤخرة الطابور لمحت وجها انشق لمرآه قلبى فجعلت أنطق «يخلق من الشبه أربعين».

حلم ٩٥

تمت الموافقة على بدء الرحلة فتلقى الأهل الخبر بالرضى وسارعوا إلى إمدادى بالمال فذهبت من فورى إلى الترزى لتفصيل بدلة على أحدث موضة وقام الرجل بعمله كأحسن ما يكون ولم يكتف بذلك بل جاء بعمامة

أنيقة ووضعها على رأسى وهو يقول : إنه بذلك تصبح البدلة على أحدث موضة .

حلم ٩٦

اشتد العراك فى جانب الطريق حتى غطت ضجته ضوضاء المواصلات ورجعت إلى البيت متعبا ، وهناك تاقت نفسى إلى التخفف من التعب تحت مياه الدش فدخلت الحمام فوجدت فتاتى تجفف جسدها العارى فتغيرت تغيرا كليا واندفعت نحوها ، ولكنها دفعتنى بعيدا وهى تنبهنى إلى أن ضجة العراك تقترب من بيتى .

حلم ٩٧

هذه حجرة السكرتارية حيث أمضيت عمرا قبل إحالتى إلى المعاش ، وحيث زاملت نخبة من الموظفين شاء القدر أن أشيع جنازاتهم جميعا ، واسترقت نظرة من داخل الحجرة لأرى من خلفونا من الشباب ، فكدت أن أصعق لم أر سوى زملائى القدامى واندفعت إلى الداخل هاتفا سلام الله على الأحباب متوقعا ذهولا واضطرابا ، ولكن أحدا لم يرفع رأسه عن أوراقه فارتددت إلى نفسى محبطا تعسا ، ولما حان وقت الانصراف غادروا مكاتبهم دون أن يلتفت أحد نحوى بما فيهم المترجمة الحسناء ، ووجدت نفسى وحيدا فى حجرة خالية .

حلم ٩٨

من موقفى على الطوار أرسلت بصرى إلى الحديقة من خلال قضبان السور الحديدية، وهناك رأيت مالكة فؤادى وهى توزع شيكولاتة على المحبين فاندفعت جهة باب السور حتى بلغت مدخل الحديقة وأنا ألهث وواصلت الجرى فى الداخل ولكنى لم أعثر للمحبوبة على أثر فهتفت بحدة لاعنا الحب. وحانت منى التفاتة إلى الخارج فرأيت الفتاة فى الموضع الذى كنت فيه وهى تتأبط ذراع شاب بدا أنه خطيبها، وهممت بالرجوع من حيث أتيت ولكن أقعدنى الإرهاق وطول المساءلة وفوات الفرصة.

حلم ٩٩

هذا فناء مستدير تتوسطه نخلة رشيقة وتقوم فى جوانبه بيوت صغيرة وعند العصارى تفتح الأبواب وتخرج النساء للسمر تحت النخلة ويدور الحديث غالبا حول البنات والزواج، وأنزوى أنا بعيد لأتابع الحديث بشغف، وعندما يهبط المغيب يعضنى الجوع ولم يكن يعلم بحالى سوى صديقة طفولتى تتسلل إلىّ حاملة طبقا صغيرا نصفه مملوء بالجبن البيضاء والنصف الآخر مفروش بالبقدونس، ونتعاون معا على معالجة الجوع على أنغام حديث الزواج.

حلم ١٠٠

هذه محكمة وهذه منضدة يجلس عليها قاض واحد وهذا موضع الاتهام يجلس فيه نفر من الزعماء وهذه قاعة الجلسة، حيث جلست أنا متشوقا لمعرفة المسئول عما حاق بنا، ولكنى أحبطت عندما دار الحديث بين القاضى والزعماء بلغة لم أسمعها من قبل حتى اعتدل القاضى فى جلسته استعدادا لإعلان الحكم باللغة العربية فاستردت للأمام، ولكن القاضى أشار إلىّ أنا ونطق بحكم الإعدام فصرخت منبها إياه بأننى خارج القضية وإنى جئت بمحض اختيارى لأكون مجرد متفرج، ولكن لم يعبأ أحد بصراخى.

حلم ١٠١

زيَّنا البيت ترحيبا بالابن العائد بعد غياب، أصبح فيه نجما من نجوم المجتمع وأمضينا السهرة فى الشرفة التى تمد الشقة بالمنظر الجميل والهواء النقى، وأتحفنا العائد بالأشعار والألحان حتى انتصف الليل وفى الصباح وجدت مدخل الشرفة مسدودا بدولاب عملاق فخجلت، ولكن الابن لم يخف حزنه، إذ ثبت له أن أناسا من صميم أسرته لا يستلطفون وجوده ويكرهون عمله الجميل.

حلم ١٠٢

أخيرا اهتديت إلى مأوى فى الدور التحتانى من بيت قديم، ولكن سرعان ما ضقت برطوبته وسوء مرافقه فسعيت من جديد حتى نقلت إلى الدور الفوقانى وهو أفضل من جميع النواحى، غير أن السماء أمطرت بغزارة غير معهودة فانسابت المياه من الأسقف فاضطررنا إلى تكويم العفش وتغطيته بالأكلمة، وغادرنا الشقة إلى بير السلم فشعر بنا ساكن الدور التحتانى الجديد فخرج إلينا ودعانا بإلحاح وبشدة إلى الداخل حيث الدفء والرعاية.

حلم ١٠٣

ماذا جرى لبيتنا جميع المقاعد تلاصقت وسمِّرت قوائمها فى الأرض، وخلت الأسقف من المصابيح والجدران من الصور والأرض من السجاجيد، فماذا جرى لبيتنا؟

قالوا بأنه إجراء لتأمين البيت لتعدد حوادث السطو على المنازل، فقلت دون تردد إن السطو أحب إلىَّ من القبح والفوضى.

حلم ١٠٤

رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات، وذكرت بصفة خاصة المرحومة عين فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل، وهناك رحبت بها بقلب مشوق واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول، وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها، فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار، وقال إن الموت لايستطيع أن يفرق بين الأحبَّة.

حلم ١٠٥

جميع الرجال فى حيِّنا يحلقون رءوسهم فى صالون عم عبده انجذابا للحسناء الجالسة خلف صندوق النقود، وتمنينا جميعا أن تتحسن حالتنا المالية فنحلق ذقوننا كل صباح فى رحاب الجمال، وذات يوم وجدتنى أسير فى طريق متألق الجمال والنقاء، وإذا الحسناء مقبلة نحوى من بُعد قريب حتى إذا حاذتنى التفتت إلىّ فجأة وأخرجت لى لسانها، وبسرعة مذهلة تحول وجهها إلى كتلة خشبية سميكة فذعرت وسارعت مبتعدا، غير أن ترامى إلىّ صوت ضحك فنظرت ناحيته فرأيت الحسناء تراقص الأسطى وهما فى غاية الحيوية والمرح.

حلم ١٠٦

غـزا الـوزارة نبـأ بـأن انقـلابـا قـد وقـع فى الـصبـاح البـاكـر فـتـجـمع الموظفون حـول التليفزيون واستمعنا إلى البيان الأول، فقال موظف قديم إنه سمع هـذا البيان فى مطلع شبابه، أما أنا فاكتشف أن زعيم الانقلاب صـديـق حـميـم، ومـن فرحتى أعلنت الخبر مسترخيا فى حبور بأن الحياة سوف تضحك لى، فـقـال الموظف القديم: إنه قد تضحك لى الدنيا وقد أعدم بدون محاكمة.

حلم ١٠٧

أنه من تراحم عجيب، ففى حقيقته يرقد نعش كتب عليه أن هذه جنازة فلان تنفيذا لوصيته، وفلان زميل كريم اشتهر بندب حظه السيئ فعلى كثرة مؤلفاته لا يكاد يعرفه قارئ، وجاء المشيعون والمتفرجون حتى بلغ الكرام المدافن وسط مظاهرة لم تشهدها جنازة من قبل، وما جاء المساء حتى كان اسم الراحل يتردد على كل لسان.

حلم ١٠٨

غـادرت القطار الجميل وقلبى مفعم بالإشراق، ولكنى وجدت نفسى فى خـلاء مـخيف، فـأين إذن الحـديقـة التى لا يوجـد مـثلهـا فى البـلاد؟!

وأدركنى رجل وجيه تذكرت وجه الرجل الذى تزوج من حبيبتى منذ سنوات فاعتذر عن التأخير فى بدء العمل لتعاقب الحروب وأكد أن الرأى استقر نهائيا على أن يعود هذا الأسبوع وعلى أن يتم تمامه فى شهر واحد تعود بعده الحياة لأجمل صديقه فى الوجود، وبخلاف المتوقع فإننى صدقته أملا أن يجىء يوم تجمع الحديقة بينى وبين حبيبتى كما جمع بيننا حى واحد فى الزمان الأول.

حلم ١٠٩

هذا تلميذى يتلقى عنى علوم الموسيقى والألحان وسرعان ما أصبح تلميذى نجما ثريا، وظللت أنا فى الظل منسيا فتركت عملى الجميل الشاق واشتغلت بتدريب الآثار، وكف تلميذى عن التعلم والعلم وأدمن المخدرات وعرض صوته للتلف، وحدث أن جمعنا حفل ساهر فلا هو عرفنى ولا أنا عرفته، وأخذت أتساءل مع كثيرين عن تدهورنا وما جرى لنا.

حلم ١١٠

إنه مشوار مرهق وعند نهايته وجدت بوابة مغلقة فاستجمعت قواى وجعلت أرفعها حتى استجابت، فرأيت وراءها بحيرة تنطلق منها صواريخ

كلما بلغ صاروخ الفضاء فى الفجر باعثا من الظلمة وجها عزيزا محبوبا امتلأ الفضاء بالأحبة، ومع ذلك فمازلت أنتظر سطوع الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود.

حلم ١١١

فى الجو غيم وفى الصدور قلق ويترامى إلينا من بعيد لا يتوقف، وقال صاحبى وهو يحذرنى بأنهم يستهدفون حياتنا فقلت له إنى عرفت أخيرا سبيل الخلاص، ولا أنكر أنه وعر كثير المقاومة ولكن ليس عندى خير منه فاتبعنى إن شئت، وتفكر صاحبى طويلا ثم تبعنى وهو يقول إن الأعمار بيد الله وحده!

حلم ١١٢

يا لها من ضوضاء، فثمة أصوات متضاربة وخطوات تهرول حينا وتركض حينا وصرخة هنا وصرخة هناك وطلقات نارية وامرأة تستغيث بالله، أذهلنى التشابه بين صوته وصوت المرحومة أمى، ومن فورى هرعت إلى السطوح حيث اجتمع إخوتى وأخوانى وتحدث أخى الأكبر عن الاستغاثة والصوت، فقال لى بتيقن بأن الصوت هو صوت أمُنا دون غيره وليس آخر يشبهه.

حلم ١١٣

أخيرا حضر الوزير الجديد فقدمت له نفسي باعتباري سكرتيره البرلماني، ولكنه لم يفهم كلمة من كلامي فحاولت شرح عملي ولكنه نهرني بحدة وأمر بنقلي من وظيفتي، وهكذا بدأت المعاناة في حياتي، ثم شاء القدر أن يجمع بيني وبين الوزير في مكان خير موقع وهو السجن، وبعد أن أفقت من ذهولي أخذت أذكره بلقائنا الأول وما جرى فيه حتى تذكر وتأسف واعتذر، وانتهزت وجودنا في مكان واحد كي أشرح له عمل السكرتير البرلماني.

حلم ١١٤

جاءت الشغالة الجديدة مصحوبة ببعض أقربائها وكأنهم أرادوا أن يشاهدوا المكان وأهله لتطمئن قلوبهم على ابنتهم الوسيمة، غير أن الوسيمة لم تمكث عندنا إلا نصف يوم، ثم ذهبت تاركة في النفوس غضبا وبلبلة، حتى كان ذات مساء فرأيتها تخرج من عمارة قريبة وهي على حال من الانحراف الصارخ فصعقتني الحقيقة الغائبة وأدركت عمّ كانوا يبحثون في اللقاء الأول.

حلم ١١٥

فى البدء التهب الخصام حول إصلاح البيت بين الساكنة فى الدور التحتانى ومالكة البيت المقيمة فى الدور الفوقانى وترامت الأصوات إلى الحارة الصغيرة ففُتحتْ نوافذ وأبواب، وأيّد البعض مالكة البيت. أما الكثرة فأيَّدت الساكنة، واحتدم الجدل ثم تطايرت الشتائم حتى أنذر الغضب الأحمر بسفك الدماء.

حلم ١١٦

ذهبت لتهنئة صديق قديم على الوزارة، ولكن بخلاف المتوقع قوبلت فى المكتب بفتور واضح ثم طال انتظار المقابلة دون جدوى، فتسلل إلى ظنى أن بعضهم افترى علىَّ فرية أفسدت الود القديم، وأخيرا غادرت مجلسى لا أرى ما بين يدى واستقبلنى زميل.

يبقى على وده وقال لى إن لعنة الله على ألسنة السوء فسألته ولِمَ لم يقابلنى ويتحقق من الأمر، فقال إنه مضى زمن والقانون معطل اكتفاءً بأقوال الشهود.

حلم ١١٧

كنت جالسا فى المقهى وإذا بفتوّة الحى يجلس إلى جانبى دون استئذان فرحّبت به مرغما فقال: إنه اختارنى للزواج من ابنته المطلقة،

فارتعشت أطرافى وقلت: إننى سأتزوج من ابنة عمى فى نهاية الأسبوع، فقال ببساطة وثقة: أنت ستتزوج من ابنتى وأنا سأتزوج من ابنة عمك.

حلم ١١٨

وجدتنى فى ميدان محطة الرمل المزدحم دوما بالبشر، ولمحت فى ناحيته الرجل الذى تردد كلماته الألوف وهو يغازل غانية، فهمست فى أذنه «إذا بليتم فاستتروا» فقال: وهل ثمة ستر أقوى من ملابسها.

حلم ١١٩

وصلت إلى المحطة فى الوقت الحرج واتخذت موقعى فى الطابور الممتد إلى شباك التذاكر. ظللنا بين القاطرة والشباك حتى انطلقت صفارة الإنذار الأخيرة ومازلت على مبعدة من الشباك، وهكذا فاتنى القطار.

حلم ١٢٠

قمنا برحلة إلى المملكة التى تغنّى بروعتها الشعراء، وهناك انضم كل فرد إلى المرشد الذى اختاره ينتقل به من مشهد إلى مشهد ومن جبل إلى بحيرة ومن متحف إلى مقبرة، وقال المرشد: إنه لم يبق من الرحلة إلا

الحديقة البللورية، ودعانا إلى شيء من الراحة والتأمل كى لا يصدمنا الانبهار فسألنا: وهل ثمة انبهار يفوق ما شاهدنا من أحياء وأشياء، فابتسم المرشد وواصل السير ونحن فى أثره..

حلم ١٢١

رأيتنى أسير فى شارع كورنيش الإسكندرية مستهدفا العمارة التى أرى فى إحدى شرفاتها السيدة الأنيقة بصحبة زوجها وأبنائها الشبان، فلما فتر الهدف ذاب المنظر ذوباناً سحرياً ناعماً حتى اختفى وحل محله شارع العباسية، ومازلت أسير نحو العمارة الجديدة التى تطالعنى من إحدى نوافذها الفتاة التى لا تُنسى، ولكنى وجدت النافذة خالية فقررت الانتظار كالعادة فى محطة الترام، ولكنى لم أجد للمحطة أثرا ولا لقضبان الترام أثرا على طول الشارع.

حلم ١٢٢

الليل سجى فاحتوتنا غرفة وهبتنا الظلمة راحة عابرة وفرحاً حميماً، وترامى إلينا من الطريق ضجة، فهرعت إلى خصاص النافذة فرأيت قوما يحدقون بشخص مألوف الهيئة وينهالون عليه باللعنات واللكمات، وهو مستسلم لم يقاوم حتى شعرت بالكلمات تخرق جسدى.

حلم ١٢٣

هذا ميدان الأوبرا وفيه أسير متجها نحو مقهى الحرية، فأدهشنى أن أجدها خالية من روادها اللهم إلا شخص منكب على قراءة أوراق مبسوطة بين يديه، وسرعان ما تبين لى أنه أستاذى الشيخ مصطفى عبدالرازق، فانشرح صدرى واندفعت نحوه مشتاقا إلى لقاء حميم غير أنه التفت إلىّ متجهما فهبط قلبى، وأشار الأستاذ نحو الأوراق وقال لى: آسف إنه قرأ اسمى بين شهود الإثبات، فلم أدر ماذا أقول ولا كيف أعتذر؟.

حلم ١٢٤

كثيرا ما اجتمعنا بمكان يقع بين الحقول من ناحية والطريق العام من ناحية أخرى، حتى قال لى صاحبى إن هذا الموقع لا يضمن السلامة فى كل الأحوال، ومن لحظتها سكن القلق فى صدرى حتى استيقظت ذات صباح على ضجة وصياح، فقمت إلى النافذة فرأيت جموعا لا يحصرها حصر وجماهير لم أميز فيها سوى الغضب الأحمر.

حلم ١٢٥

توجهت إلى مسكنى فوجدته يمور بالحركة ولا شىء من الأثاث فى موضعه، وثمة غلمان وبنات لا أعرفهم يلعبون هنا وهناك دون أن يحسوا

بحضورى فانقبض صدرى، ودلفت إلى الشرفة المطلة على حديقة قريبة منى، وفيها شجرة ضخمة تمتلئ أغصانها بالعصافير المزقزقة، وكانت الزقزقة وحركة العصافير قد أنستنى كل شىء غير صوت العصافير وهى تغرد.

حلم ١٢٦

ذهبنا لتهنئة الوزير الجديد بوصفنا أصدقاء قدامى فرحب بنا، ووجدنا أحباء آخرين فرجعنا معهم إلى عهد الصبا، وفى الصباح التالى أذاع الراديو البيان الأول لحركة الجيش، وعندما ذهبنا إلى السكرتارية للترحيب قال لنا لا تسهبوا فى الترحيب قبل أن تعرفوا القادم.

حلم ١٢٧

فى حديقة هذه الفيلا نجتمع مساء للسهر والسمر فى حرية شاملة، ولكن صاحب الحديقة تغير فجأة فاستبد بكل شىء، فهو يختار موضع الجلسة وموضوع الحديث والأكل والشرب، وحسبناها دعابة ولكنه استمر وتمادى فضقنا به ذرعا غير أننا أخفينا مشاعرنا إكراما للموقف. إلا واحد لم يستطع إخفاء مشاعره، وذات مساء انفجر غضبه المكتوم وجن جنونه فصرخ، وأخرج من جيبه مسدسا صوبه نحونا بيد مرتجفة فتفرقنا فى الحديقة تطاردنا لعناته وشتائمه.

حلم ١٢٨

هذا محل لبيع التحف يتألق نورا وبهجة، وتجلس فى خدمة ضيوفه شابة آية فى الجمال، وطفت به حتى صادفنى مطعم صغير فتناولت ساندوتشا ودخنت سيجارة والتفت لرؤية الشابة الجميلة، لكنى وجدت مكانها امرأة طاعنة فى السن فانقبض صدرى وأرسلت ناظرى باحثا عن الجميلة، فمضيت فى حيرة بمرآة فوقها مشهد به صورة عجوز يتوكأ على عصا غليظة قد أعياه المشى والقلب والذاكرة.

حلم ١٢٩

مازلت فى صباحى مستوصيا بالصبر والعزم والاستمرار حتى بلغت مرتفعا أوحى إلىّ بأخذ شيء من الراحة، وهنا لمحت صبيا يكافح للصعود، فرق له قلبى ومددت له يدى، ولكنه جذبنى بقوة لم تجرنى فى جناحه، فهربت أتدحرج ولا أملك لنفسى شيئا.

حلم ١٣٠

صحوت من نومى على أصوات تنادينى غير عابئة بوقار الليل، وسرعان ما عرفت منها أصوات صديقات الزمان الأول، وكن يذكرننى بالميعاد الذى لم أنجزه فتلفحت بالروب وهرولت إلى الخارج، ولكنى وجدت الشارع خاليا والصمت سائدا.

حلم ١٣١

لقاؤنا فى هذا الركن من الغابة وحياتنا طرب مستلهم من المواويل، وسماؤنا سحب من دخان رقيق عاطر، ونحن كأننا نائمون أو غافلون، وذات يوم اقتحم هدوءنا غناء غريب مجنون الإيقاع شديد الصخب فذهلنا ورأى بعضنا إسكاته ولو بالقوة على حين آثر البعض التأمل والحكمة، وعلى أى حال فقد استيقظ النائمون وتخفر الغافلون.

حلم ١٣٢

هى وأنا ماضيان كالعادة إلى ملهى من الملاهى، وفى الطريق استأذن دقيقة ريثما يشترى سجائره ولما رجع لم يجدها فعلم على ظنه إنها سبقته إلى الملهى المتفق عليه فذهب إليه ولكنه لم يجدها، فراح ينتقل من ملهى إلى ملهى باحثا عنها، وحتى هذه اللحظة لم يكف عن البحث.

حلم ١٣٣

جائزة مقدارها مائة جنيه لم أعرف قبلها من النقود إلا راتبى الصغير، فأملت أن تكون الخطوة الأولى فى طريق الثراء، فكم من زميل بدأ من الصفر ثم أصبح من كبار الأغنياء، وسألت أحدهم عن

الوسيلة فضحك وقال لا تسل عن الوسيلة فلا يجهلها أحد، ولكن سل عن الشخص والزمن.

حلم ١٣٤

جمعتنا المواعيد فى الطريق الزراعية، فجعلنا ننشد الأشعار ونغنى ما طاب لنا من الألحان حتى سرقنا الوقت، فغاب قرص الشمس ونحن لاندرى، فتذكرنا أنه عند هبوط الظلام يترامى إلينا عواء الذئاب من جهات كثيرة.

حلم ١٣٥

اشتقت لرؤية أهلى فانتقلت من فورى إلى البيت القديم، وهالنى بأن أجده غارقاً فى الظلام كأنهم استأنسوا بالظلمة، فناديتهم معاتباً رجلاً رجلاً وامرأة امرأة، ولكن لم يجبنى أحد.. رجعت أكرر النداء حتى دمعت عيناى.

حلم ١٣٦

رقد جثمان أختى على الفراش، وقفت أمامه ومعى حبيبتى خاشعين، على حين تربعت على الفراش صبية جميلة تغنى غناء شجيا، وجرى

الزمن فأصبح الجثمان الراقد على الفراش، وهو جثمان حبيبتى، ووقفت أنا وأختى أمام الفراش خاشعين، واصلت الصبية فى موضعها تغنى غناءها الشجى.

حلم ١٣٧

يالها من حديقة لا أول لها ولا آخر يقطر من سمائها الصفاء وتتوارى أرضها تحت الشجر، وجلسنا فى ظل شجرة لنأكل ونشرب، وإذا بصوت يخبرنا بأن المغنيات والراقصات آتيات آتيات، وصوت آخر يحذرنا من الاستماع إلى الأمثال والحكم التى تذم بصلب الدهر وتحدى الأيام، وقال إن حسبكم هذه من الأشجار المثقلة ثمارها بالهناء والسرور.

حلم ١٣٨

شارع طويل عريق وأنا أسير فيه على مهل غافلا عما حولى، وإذ بيد تربت على كتفى، فالتفت أمامى فرأيت امرأة آية فى الجمال والرشاقة ودهشت فابتسمت فأسرعت نحو بيت أنيق أخضر، فاستقر رأيى على أن أتبعها، ولكننى التفت حولى لحظة ليطمئن قلبى، وفى هذه اللحظة تدفق جنود الأمن حتى سدوا الطريق سدا وتعذر علىّ التقدم، ولكن عينى لم تتحولا قط عن البيت الأنيق الأخضر.

حلم ١٣٩

هذا معرض اشتهر بصوره الفنية التى تتغير شكلا ومضمونا كلما اقترب منها المشاهد، وأول ما طالعنى صورة غابة آية فى الجلال، ولما اقتربت خطوة تلاشت الغابة وحلت محلها صورة امرأة عارية متعددة المحاسن، وعند الخطوة التالية غابت المرأة وظهرت محلها صورة معركة حامية الوطيس اشتعلت فيها كافة أنواع الأسلحة من الأحجار وحتى الإلكترونات.

حلم ١٤٠

هذه امرأة ثرية المحاسن ما إن رأيتها حتى غازلتها، وإذا بزوجها ينقض علىَّ ويأبى أن يتركنى إلا فى القسم، ولكن تداخل رجل من حينا اشتهر بين خاصة معارفه بالدعوة إلى الحرية المطلقة، ففررت بعد أن لقننى درساً لا ينسى ويتجسد لى كلما قابلت امرأة، حتى رأيت نفسى وجها لوجه مع المرأة الجميلة فهممت بالجرى، ولكنها أقبلت علىَّ باسمة وتأبطت ذراعى وهى تهمس بأن زوجها اعتنق أخيرا دعوة الحرية المطلقة.

حلم ١٤١

هذا حينا القديم الجميل، وهذا أنا أجول في أركانه حاملا في قلبي ذكرياته، ثم خطر لي أن أقيم في البيت القديم حتى تخف أزمة المساكن، ولكن تبين لي من أول يوم أنه لم يعد صالحا للحياة الحديثة.

حلم ١٤٢

هذه القطعة من الأرض الفضاء هي ميراثي الوحيد، وقد أطلق عليها اسم الخرابة لطول ما عانت من إهمالها، وما أن رُزقت بعض المال حتى فكرت جادا في تعميرها، ولكني لم أقدم لكثرة ما عرفت من حوادث النصب وفساد الذمم، حتى سألت جاري الحكيم: ألا يوجد في الدنيا شخص خيِّر؟ فأجابني بأنه موجود، ولكن يتطلب العثور عليه عزما وشجاعة وبحثا لا يتوقف.

حلم ١٤٣

سمعت صوتا غير مألوف فمرقت بسرعة إلى فناء العمارة فرأيت رجلا غريبا أثار في نفسي الريب، فناديت البواب ولفتُّ نظره إلى الرجل

الغريب، فأخبرنى بهدوء أنه موظف ويؤدى واجبه الرسمى وهو أخذ الزائد من الأفراد من المساكن المكتظة وينقله إلى مسكن يتسع له، فاعترضت قائلا إنه يأخذ فردا من أسرة ويخلف حزنا وينقله على رغمه إلى مكان لا يرحب به، فقال البواب بأن هذا هو القانون ونحن لا نملك حياله إلا الإذعان والتسليم.

حلم ١٤٤

نظرت فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نورا بعد أن دام غيابها خمسين سنة، فسألتها عن الرسالة التى أرسالتها لها منذ أسبوع، فقالت إنها وجدتها مفعمة بالحب ولكنها لاحظت أن الخط الذى كتبت به ينم عن إصابة كاتبه بداء الخوف من الحياة وبخاصة من الحب والزواج، ولما كنت مصاب بنفس الداء فقد عدلت عن الذهاب إليك وفكرت فى النجاة فلذت بالفرار.

حلم ١٤٥

هذا مهرجان عظيم جمع العديد من رموز الأمم، ونادانى رئيس المهرجان وسلمنى كرة وهو يقول إنها هدية المهرجان لك وهى من الذهب

الخالص، وأنهالت عليّ التهانى، ولما رجعت أعلنت نيتى على التبرع بنفس الهدية لأعمال الخير فجاءوا بمنشار وأخذوا يقسمونها، ولما وصل المنشار إلى باطن الكرة دوى المكان بانفجار مزلزل وتطايرت شظايا الضحايا من الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

حلم ١٤٦

انتصر العدو واشترط لوقف القتال أن يتسلم تمثال النهضة الذهبى المحفوظ فى الخزانة التاريخية، وذهبت مع فريق لنحضر مفتاح الخزانة المحفوظ بالصندوق الأمين، ولما كشفنا غطاء الصندوق تبدى لنا ثعبان مخيف ينذر بالموت كل من يدنو منه، فتفرقنا وأنا أدارى فرحتى وأدعو للثعبان بالسلامة والتوفيق فى حفظ المفتاح.

رقم الإيداع ٢٤٦٧ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1201 - 8

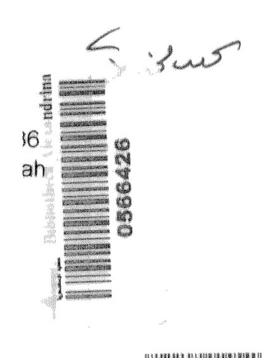
مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

حلم ١١٨

وجدتنى فى ميدان محطة الرمل المزدحم دوما بالبشر، ولمحت فى ناحيته الرجل الذى تردد كلماته الألوف وهو يغازل غانية، فهمست فى أذنه «إذا بليتم فاستتروا».

فقال: وهل ثمة ستر أقوى من ملابسها ؟!





دار الشروق
www.shorouk.com